مجلة مركز بحوث ودراسات

المدينة المنورة

العدد الخامس والثلاثون/شوّال - ذو الحجة ١٤٣١هـ . اكتوبر - ديسمبر ٢٠١٠م

٣٥

- أثر العناصر المناخية في نشأة العواصف الرعدية وتطورها في المدينة المنورة
- الشخصية النسائية في روايات الروائيين المدنيين
- رزين بن معاوية: حياته وآثاره
- مدرسة العلوم الشرعية: المؤسس والمؤسسة

الشخصية النسائية المدنية
في روايات المدنيين

د. عبد الباسط عبد الرزاق بدر
مساعد المدير العام بمركز بحوث ودراسات
المدينة المنورة

الشخصية النسائية كالشخصية الرجالية محور أساسي في الروايات الأدبية تصنع الأحداث، وتقف طرفاً من أطراف الصراع، أو تكون سبباً من أسبابه، وتحمل قسطاً من رسالة الرواية أو كلها، تستوي في ذلك الرواية الاجتماعية والتاريخية والسياسة، وحتى الرمزية، تخصها في الغالب بمساحة ما، إن لم تجعلها بعض رموزها وأقنعتها، فضلاً عن الرواية العاطفية التي تكون المرأة فيها قضية القضايا.

ويتعدد حضور الشخصية النسائية في الرواية الأدبية، فتكون في مواقع الشخصيات الرئيسية حيناً، والرديفة حيناً آخر، وتحتشد مع الشخصيات المساندة أو الثانوية دائماً، وتتعدد أدوارها ووظائفها، تماماً كما هي في الحياة الواقعية: حبيبة وصديقة وزوجة وأماً وأختاً وابنة، فيها الخير وفيها الشر، ولها أحوال وأزمات تشكل في بعض الروايات مضمونها الكبير.

لذا فإن دراسة هذه الشخصية، وخاصة في الروايات التي تمتاح مادتها من واقع الحياة وشرائح المجتمع، توصلنا إلى مؤشرات كثيرة ومهمة لفهم الواقع وتقويمه، وكشف ما يتفاعل تحت الغطاء ويرهص بمستجدات قادمة، سلبية أو إيجابية، وربما تمنحنا الفرصة للاستعداد لها، أو استباقها بما يخفف سلبياتها إن لم يلغها، وربما..... وربما..... فعطاءات الدراسات

غنية بالفوائد ما كانت منهجية وموضوعية.

وقد دأبت الدراسات التحليلية والنقدية للرواية على سبر أغوار شخصياتها، ورصد صفاتها الظاهرة والخفية، وتتبع مواقعها في أحداث الرواية وانفعالاتها، وتصوير أزماتها وما ينجم عنها من سلوكيات، والبحث عن أسبابها، وتستفيد من العبارات الصريحة والرامزة في تفسير مكوناتها النفسية، وتنهج مناهج شتى في استخدام النظريات النفسية والاجتماعية والوراثية، وحتى الاقتصادية؛ لتفسير الظواهر التي تكتشفها في تلك الشخصيات واستنتاج النتائج منها.

ومن الظواهر التي تلفت نظر الدارسين: العلاقة بين شخصية الرواية وبيئتها، ومدى تجسيدها للحراك القائم فيها، أو إسهامها فيه، سواء كانت جزءاً منه، أو في خندق مضاد، أو في منطقة اللاتوازن والضياع.

وتشكل المدن بيئات خصبة لحراك شخصيات الرواية وشحنها بقدر لا يُحَدُّ من العواطف والانفعالات المتضادة، وميادين واسعة لأحداث متنوعة ومواقف متباينة وصراعات كثيرة، فالتطورات السريعة للمدن تحمل معها تغييرات كثيرة تحدث بسببها صدامات بين القديم والجديد، والثابت والمتحول، والرغبة والعقبات، وطبيعي أن تتأثر الشخصيات بهذا كله أو بعضه، وأن تحمل في سلوكياتها تلك الآثار، وتجسدها في ردات فعل تصنع أو تسهم في صنع أحداث ومواقف حاسمة.

والمدينة المنورة واحدة من تلك المدن، لها شخصيتها المميزة وموروثها العريق، شهدت تغيرات واسعة في حياتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، وسكنت في الظل حيناً من الدهر، وتألقت بأبهر الأضواء حيناً آخر، وعرفت منذ القدم وعلى امتداد العصور تعدّد الأعراق وتلوّن الثقافات، وتداخلاً في النسيج الاجتماعي، وتعايشاً بين سكانها

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يتراوح بين قبول الآخر والتمازج معه إلى حدِّ التصاهر، وكَوَّنت من ذلك كله موروثاً يتميز بقدسية دينية، وقيم نبيلة، وأعراف وتقاليد صَدَّرتها منذ عهد النبوة إلى المجتمعات التي دخلت الإسلام وعادت إليها مع المهاجرين والمجاورين، تحمل فيما تحمله آثار الهوامش والتحولات التي أضافتها تلك المجتمعات على مر العصور، واستطاعت أن تشذب الناشز منها، وكأنها بوتقة تصهر كل من يدخل إليها وتطبعه بطوابعها المتميزة.

ولكن ورغم تميز طوابع المدينة وسماتها الشخصية فإن مستجدات الزمن تؤثر في شخصيات أبنائها، وتأتي عليها موجات تتفاوت شدة ولِيناً، ويتفاوت تأثيرها في أبنائها، وقد يكون بعضها مضنياً، ولكنه ـ وبشهادة الزمن ـ لا يطول ضناه، فتعود طوابع المدينة بإيجابياتها العالية وقيمها الفاضلة إلى الاستعلاء والتغلغل في نفوس أبنائها، وتغسل أوضار الموجات المضنية، وهذه ـ في يقيني ـ في نتيجتها النهائية ظاهرة صحية، تدل بوضوح على تفاعل البيئة مع مستجدات الزمن، وانعتاقها من التقوقع و(الآبائية) التي تُرَسِّخ إذا استحكمت أسوأ آثار الجمود والتخلف، وتُحَجِّر العقل، وتجعله يردد في ببغاويّة عمياء (إنا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون).

ورغم أن المدينة منذ القدم بيئة شعرية ثرة، فإنها قد شاركت وعلى استحياء في هجمة الرواية الأدبية المعاصرة، وظهر فيها عدد من الروائيين المقتدرين، الذين كتبوا روايات يمتزج فيها الخيال بالواقع، وأسقطوا في بعضها الآخر ملامح من سيرهم الذاتية، وتجاربهم الشخصية، وهمومهم وتطلعاتهم، وظهرت صورة المدينة في عدد قليل منها تحمل مشاهد من حياتها، ونماذج من شخصيات أبنائها، وتتأثر في بنيتها النفسية والقيمية بتوجهات كتابها وتصوراتهم وتطلعاتهم، كما تتأثر بثقافاتهم المحلية والمستوردة. وقد شَدَّني هذا اللون من الروايات وأغراني بثراء مراياه، فكما

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تعرض هذه الروايات مشاهد ومواقف واقعية أو قابلة لأن تكون واقعية تعرض البؤرة التي اجتذبت كاتبها، والصورة التي التقطها أو تخيلها، والتجاور أو التقاطع القائم فيها بين الموروث والمستجد، وبين المميزات التي نَحسَبُ أنها صفة من صفات المدينة المنورة والسمات المضادة التي خالطتها أو غالبتها وغلبتها، ووجدتُ لدى قراءتي بعض تلك الروايات أن الشخصيات النسائية فيها هي أفضل ميدان تتجلى فيه تلك المواقف، وخاصة الشخصيات التي منحها الروائي أدواراً رئيسية، وجعلها المحور الكبير لروايته، وحمَّلها فضائل أو آثام الأعراف والتقاليد والقيم السائدة في بيئتها، كما حَمَّلها الدعوة إلى إكبارها أو التمرد عليها، وفي يقيني أن صورة الشخصيات ورواياتها جزء مهم ومؤثر من الحياة الأدبية في المدينة المنورة يُظهر بعض ألوانها، وشيئاً من مصادرها وتوجهاتها، ويلفتنا إلى آثارها المحتملة، فأهل (المدينة) أدرىَ بشعابها، وأقدر على نقل ما يدور في دروبها الظاهرة ومسالكها الخفية.

وقد اخترت روايتين لروائيين من أهل المدينة مختلفين جنساً وجيلاً وثقافة، ولكن كلاً منهما جعل المدينة بيئة روايته، والشخصية النسائية هي بطلتها ومحورها الرئيسي، وحاملة مضمونها ورسالتها إلى المتلقين، وهذه حالة تُغري بالقراءة الفاحصة والمقارنة، وتَعِدُ بغير قليل من المؤتلف والمختلف، والخاص والعام، والذات والموضوع، والمحتمل والمستحيل، وغير ذلك من الثنائيات أو المتوحدات التي توصلنا إليها القراءة والمقارنة.

الرواية الأولى: وداعاً أيها الحزن للكاتب غالب حمزة أبو الفرج، والرواية الثانية: جاهلية للكاتبة ليلى الجهني.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الشخصيات النسائية في رواية وداعاً أيها الحزن:

تهيمن الشخصيات النسائية على هذه الراوية، فتحتل الموقع الرئيسي بشخصية (سلمى) ومواقع الشخصيات المساندة بسبع شخصيات، يتفاوت حضورها بتفاوت قربها أو بُعدها عن سلمى، وتتوزع في مجموعتين: مجموعة تربطها بها رابطة العمل، وهنّ زميلاتها في التدريس: سعاد وسهير وفريدة. ومجموعة تربطها بها روابط القُربى والعلاقات الاجتماعية وهن: أمها، وزوجة شقيقها (شاهيناز)، وزوجة صديق العائلة الحاج يلطاش، وسارة أخت طلال، في حين لا نجد من الشخصيات الرجالية المقابلة سوى (طلال) حبيب سلمى، وشقيقها، اللذين ظلا على امتداد الرواية بلا اسم، والحاج يلطاش، والأخيران يظهران في مشاهد قليلة وقصيرة.

وتبدو هيمنة شخصية سلمى على الرواية مقابل الحضور المحدود لطلال الذي يفترض أنه في دور البطولة المقابل لسلمى، غير أن حضوره يتوزع بين مواقف قليلة يعرضه الكاتب فيها مع سلمى، وبين تصورات سلمى وأشواقها وانفعالاتها، فسلمى هي الحاضرة في كل المواقف، والمقصودة في كل حدث وحوار، أو المشاركة فيه، أياً كانت الشخصية الأخرى الموجودة معها.

ويسلك الكاتب الخط الزمني المتسلسل في عرض شخصية سلمى وتطوراتها دون تداخل أو تقاطع، وكأنه يكتب سيرة حياتها مرحلة بعد مرحلة، وفي كل مرحلة يسوق جانباً من صفاتها العامة وانفعالاتها، مركزاً على الانفعالات المرتبطة بحبها لطلال ومواقفه منها، باستثناء مرحلة الطفولة الأولى، التي يوجز لنا فيها ولادتها في مزرعة مدني قرب سيدنا حمزة عندما كانت أمها في زيارة لأختها، ويحرص في جميع المراحل

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

على عرض جوانب من تكوينها النفسي، مع إشارة سريعة لصفتها الجسدية العامة. ففي مرحلة الطفولة يقدمها لنا بشاعرية عالية ضمن مجموعة من المفردات الجمالية الطبيعية، ويجعل ولادتها وسط حشد من الزهور والعطور والثمار وظلال الأشجار وينبوع الماء؛ ليؤسس لروابط عميقة ودائمة بينها وبين الطبيعة، ولا ينسى أن يضيف إلى هذه الكوكبة الجمالية صفة جسدية تبين لنا سمرتها المتميزة يقول: (**في ظلال أشجار السرو البرية، وبين مسالك الدروب المؤدية إلى مجاري السيل في سيدي حمزة والسيح وقباء والعوالي، وبين داليات العنب البلّورية الشفافة، وتحت كعوب أشجار الورد الأصيل، حيث تنتشر أوراق الياسمين وظل ماء الورد، وينبوع العين الزرقاء، وجمال فروع الفاغية، ولدت مجرد أنثى نحاسية اللون**[١]).

وفي مرحلة طفولتها، وعندما بدأت تدرك أمور الحياة حولها انخرطت مع بقية أفراد أسرتها الصغيرة والفقيرة في العمل في مزرعتهم الصغيرة، وأحبت هذا العمل، وآثرت أن تكون مثل أمها (مَوَّانة) أي بستانية، وفي الوقت نفسه تذهب إلى الكُتَّاب لتتعلم[٢]، وتستمر هذه الثنائية في مراحل حياتها إلى آخر الرواية، وتصبح جزءاً من تكوينها النفسي والسلوكي: التعلق بالطبيعة والركون إليها، والاستمتاع بالعمل في أحواض الزهور وقص الأعشاب وجني الثمار، وفي الوقت نفسه الدراسة إلى نهاية المرحلة الجامعية، ثم التدريس في مدارس البنات[٣].

فهي تعشق عملها (موّانة) وتؤديه راضية، تغني منفردة بذاتها ونفسها[٤].

---

(١) رواية وداعاً أيها الحزن للكاتب غالب حمزة أبو الفرج (ص٥).

(٢) السابق نفسه.

(٣) انظر السابق ص٧ وص٢٠ وص٤٦ وص٨٠ وص٨٥.

(٤) السابق ص٤٥-ص٤٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وعندما تجتمع عليها المصائب بفقد الأم والحبيب على التوالي تلجأ إلى أحضان الطبيعة، تتملى جمالها، وتستعين به على استعادة توازنها وتخفيف أحزانها (**بين روابي قباء، هناك وفي البستان كنت أجد نفسي بين الخضرة والماء وحداء الراعي وكسرات الشباب... كم هي جميلة ورائعة هذه الأرض، وكم هي معطاء، تهب من يعمل من أجلها بلا حدود**[1]).

وفي موقف آخر من مواقف الصراع بين موجات الحزن واليأس، وبين ومضة الحلم العائد بعد سنوات طويلة تهرب سلمى إلى بستانها؛ لتجد فيه الأمان من صراعاتها الداخلية، والضغوط النفسية التي تعيشها، تقول: (**مضيت أحث الخطى إلى البستان، مكان الأمان بالنسبة لي، وكنت أغني موّالاً كنت قد سمعته وأنا طفلة صغيرة: [ياراعي الحب انس الحب واتذكر، جمال الزهور والورد واتفكر، بكره يضيع الحب ويبقى لك، ربيع وردك وحزن قلبك وكل أشجانك] وفي يدي مدية صغيرة.(المحش) سلاح الموّانة القديم، وفي عيني إصرار عجيب على أن أدفن حبي القديم بين أزهار الورد والفل والنرجس، وأن أنسى كل الذي كان، وأتذكر فقط أنني أحب الفل والورود وأعشق هذه الأرض**[2]).

ولا تغيب الإشارة إلى صفاتها الجسدية العامة في مراحل حياتها التالية لكن الكاتب يختصرها في عبارات موجزة وعامة، ففي مرحلة طفولتها الثانية ومراهقتها كانت أمها لا تخفي دهشتها من جمالها الآسر، وصديقاتها (**يقلن: يا بخت من سوف تكونين من نصيبه**[3]). وعندما تصبح شابة ناضجة تحسبها إحدى المضيفات في فندق هيلتون امرأة برازيلية

(١) السابق ص٧٢.

(٢) السابق ص٨١.

(٣) السابق ص١٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وتحادثها بالإنجليزية، وعندما تستفسر سلمى منها عن الذي جعلها تظن ذلك تخبرها بأن جمالها جمال ثائر، وعيونها تشبه عيون البرازيليات، وكذا لون جسدها يشبه ألوان أجسادهن[١]. وعندما يتقدم بها السن وتراها شاهيناز زوجة أخيها تقول لها: (**هل تصدقين يا سلمى، لم أكن أظنك على هذا القدر من الجمال رغم كل صورك التي رأيتها**[٢]).

ومن السمات الرومانسية التي يضيفها الكاتب على شخصية سلمى رقة مشاعرها وحزنها لآلام الآخرين، فضلاً عن موجات الحزن التي ستغمرها عند إحساسها بالصدمة وخيبة الأمل، وتظهر سمة الحزن في شخصيتها في مرحلة مبكرة على أعتاب المراهقة، يكشفها الكاتب لنا بحادثة لا علاقة لها بسلمى أو أقاربها أو أصدقائها، ويسوقها في الرواية على لسانها حيث يقول: (**في ذلك اليوم الذي لا أنساه أحسست بالألم يقطّع نياط قلبي، فالقافلة التي كانت تأتي من جدة على الجمال في طريقها إلى المدينة فقدت بعضاً من رجالها، داهمهم الموت وهم في إغفاءة مع النوم الذي تسلل إلى جفونهم من التعب.... الناس يتحدثون عن هذه القضية، يلوكونها بين أسنانهم وكأنهم ينهون إلى أسماع الآخرين حكايا من حكايات هذه الدنيا، أما أنا فكنت مع دموعي المنحدرة على وجنتي على موعد، لدرجة جعلت أمي تنهي أعمالها وتتوجه إليَّ بكلماتها المتسائلة: أهم أقرباؤك يا سلمى ؟ ألا تعرفين أن الموت هو بداية الحياة؟**[٣]).

وهنا يُلَوِّن الكاتب الموقف بلون فلسفي؛ ليعمق الجانب الرومانسي في شخصية سلمى، ويؤكد شفافيتها المتميزة من جهة، ومن جهة أخرى؛

---

(١) السابق ص٥٨.

(٢) السابق ص٧٠.

(٣) السابق ص٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ليظهر بُعداً ثقافياً وإنسانياً مبكراً في هذه الشخصية النسائية التي لم تستكمل نضجها بعد، إلى درجة يحس القارئ فيها أن الكاتب تَعجَّل في إظهار هذا البعد، ولو أجّله إلى مرحلة النضج لكان أنسب وأكثر توافقاً مع طبيعة المرحلة. تقول سلمى مجيبة أمها: (**نعم نحن أقرباء يا أماه وإن تباعدت بيننا السبل، ألسنا أبناء هذه الأرض التي أحبها آدم وروّتها حواء بدموعها وهي تبحث عن وليفها في هدأة الليل وضوء النهار؟. نحن يا أماه أبناء هذه الإنسانية التي يستمد الإنسان منها حياته وأمله ومشربه، لولا هؤلاء الذين يجودون بأرواحهم لافتقدنا قرص الشعير.... نحن يا أماه خليط عجيب من اللحم والدم والأعصاب تشدنا المواقف، وتدفع بنا لاجتياز المجهول واجتياز المعقول، أحاسيسنا غير ملموسة وإن كانت محسوسة، وقلوبنا جياشة بالعواطف، تطفو دائماً لتطل على السطح في قوة واندفاع وقسوة وحنان وأمل وحب ومنتهى التفاني أيضاً. نحن يا أماه كل هذا وأكثر. ولهذا تجدينني أبكي على قوم وإن كانوا ليسوا أقرباء لي**[1]).

ورغم أن الكاتب أفاض في حشد المشاعر الإنسانية في أعماق سلمى وجعلها من بُنيتها الرومانسية، فإن الواقعية التي غمس شخصيتها فيها جعل الحزن (قابلية) وليس حالة (مرضية)، وهذه القابلية تتواءم مع الصدمة العنيفة التي ستواجهها في علاقتها مع حبيبها طلال لاحقاً، بل وكأنها تمهيد لها وتسويغ لعنوان الرواية، الذي يدل على أن الحزن سيمكث ما يمكث ثم يرحل. وتتجسد (الواقعية) في شخصية سلمى في معادل (الظروف الصعبة) التي تنشأ فيها، فظروف أسرتها الفقيرة تجعلها تعمل وهي طفلة مع أمها في المزرعة، وتجعلها تحمل ما تصنعه أمها من منتجات

(١) السابق ص٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المزرعة مثل مراوح القش والمكانس والألعاب والشراب لتبيعه للزائرين على بسطة قرب باب السلام عند المسجد النبوي، أو قرب أحد أبواب مسجد قباء، وتعود إلى أمها بالريالات القليلة التي تجنيها[١]، وتحمل القمح من قباء إلى طاحونة السيد محمود أحمد قرب معقد بني حسين في قلب المدينة المنورة، وتعاني من سماجات بعض الأطفال الذين شبوا عن الطوق[٢]، ثم تتولى خبز العيش في الفرن الصغير في البيت[٣].

ولكي يوازن الكاتب بين متضادتي الحزن الرومانسي والواقعية يعلن على لسان سلمى وفي وقت مبكر أن تطلعها إلى(الفرحة) لم يغب عنها قط، وأنه أصبح جزءاً من شخصيتها، ويمنح مظهرها العام شعوراً بالبهجة، يتجلى في ابتسامة تلقى بها الآخرين حيثما كانت وفي كل الأحوال المناسبة، تقول: (**أنا التي عشت طفولتي رغم كل ما يحيط بها من مظاهر القسوة أتخيل الفرحة تتسرب إلى أعماق أعماقي لتضفي على وجهي ابتسامة طالما رآها الناس في بيتنا، وفي الكتّاب، وفي البستان، وحتى وأنا في الطريق....** [٤]).

وعندما تنضج وتصبح مُدَرِّسة يصبح التطلع إلى الفرحة إحساساً بالتفاؤل يرافقها دائماً ويبعد عنها شبح التشاؤم، حتى وهي في مرحلة قلقة لا تدري ما مصير حبها لطلال، وما نتيجة انتظارها السنوات الطويلة وهي على أمل الاقتران به، تقول في إحدى خواطرها في تلك المرحلة: (**في أعماقي يعيش التفاؤل، وإن يكن مستقبلي يرقص على أتون من الجمر، لا أدري**

(١) السابق ص٩.

(٢) السابق ص١١.

(٣) السابق ص١٢.

(٤) السابق ص٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لم أصفه هكذا، أنا التي أرفض التشاؤم من كل قلبي[١]).

ومن السمات التي يضيفها الكاتب على شخصية سلمى شعورها بالتميز والذي ينبت من ثقة كبيرة بالنفس وليس من الغرور والتعالي، ويظهر هذا الشعور في خواطرها، وفي قراراتها ومواقفها من بعض الأحداث، وفي حواراتها القليلة مع الآخرين، وفي استخدامها مصطلح (الحرائر) الذي تصنف نفسها فيه؛ لتصور المشاعر والمواقف النبيلة التي تصدر عنها، ففي إحدى خواطرها تجعل هذا التميز سبباً للمحافظة على ذكرى الفتى الذي عرفته قبل سنوات، ودافعاً لها كي تتحدى المصاعب، تقول: (**أشعر مع كل هذه الأحاسيس التي تضغط على صدري وأمعائي بأنني في أمس الحاجة إلى التفكير في ذلك الإنسان الذي عرفت يوم كنت وكان، وضاع من قدمي الأرض والزمان والمكان، وأصبحت أتيه في صحراء جديدة، أحس برحابة حبنا، وأشعر بأشواك طريقه، فنحن الحرائر عندما تبدأ مسيرة الحياة وتكبر أجسادنا نفكر ولا نلغي من تفكيرنا الماضي وما وراء الماضي**[٢]).

وفي خاطرة أخرى تكرر تميزها وشعورها بأنها من الحرائر، وتجعل هذا الشعور والتميز مسوغاً ودافعاً للعطاء الذي يصل إلى حد التضحية، تقول: (**نحن الحرائر في أعماق أعماقنا تستقر فلسفة العطاء بأجمل معانيها رغم كل ما يقال**[٣]).

وعندما تتأكد أن حبيبها الذي انتظرته طويلاً غدر بها وتزوج فتاة كندية يخامرها شعور خفي بأنه سيعود يوماً إليها ويطلب الزواج منها

---

(١) السابق ص٤٥.

(٢) السابق ص١٩.

(٣) السابق ص٢٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فتحدث نفسها أنها سترفضه بإصرار؛ لأنها (**امرأة من قباء، من العوالي، من قريان، من أرض عرف أبناؤها الكرامة حتى عندما يحبون**[١]).

وتعلن لأخيها الذي يحاول إقناعها بنسيان طلال والزواج ممن يخطبها أنها الفتاة المتميزة التي منحتها حياة الريف قوة وصلابة (**انتظر وبعدها سوف تعرف أن ما أفعله ليس وفاء فقط، وإنما بالإضافة إلى الوفاء شيء آخر، فأنا يا أخي الموَّانة التي تعلمت كيف تسير على الأشواك بصلابة ما بعدها صلابة**[٢]).

وتؤكد سلمى تميز شخصيتها في حوارها أيضاً مع سهير التي حاولت إقناعها بالزواج من طلال بعد أن عاد من كندا وطلق زوجته الكندية وسعى للزواج منها كما توقعت من قبل (**لا...قلتها في حزم، لقد اختار طريقه واخترت طريقي، فأنا كما تعرفين قروية من قباء، (موّانة) تعرف كيف تهزم الأشواك من بين صحبة الورد والياسمين...** [٣]).وتسوغ لنفسها حينما يدور فيها صراع بين الحنين لحبها القديم وبين كبريائها المجروحة (**نرفض في إباء وشمم زلة عقل**) (**لا أريد إنساناً أضاع حبي عند أول إشارة في مفترق طرق**) (**نسيتِ من أنا... ومن أية طينة نحن بنات قباء.... نسيت أن الإباء وظيفة من وظائف المرأة في طيبة الطيبة بشكل عام**[٤]).

ويتصل بهذا التميز الذي يملأ شعور سلمى دائماً سمة أخرى هي الجرأة، وهي إن لم تنبت منها فإنها وثيقة الصلة بها؛ لأن الشعور بالتميز يمنح صاحبته ثقة عالية بالنفس تجعلها لا تتردد في أن تقدم على ما يتردد في الإقدام عليه غيرها، خاصة وأنها أنثى يطغى عليها حياء فطري، وتحيطها

(١) السابق ص٧٣.

(٢) السابق ص٧٤.

(٣) السابق ص٧٩.

(٤) السابق ص٧٩-ص٨٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأعراف والتقاليد بمجموعة من الممنوعات، وتبدو هذه الجرأة في شخصية سلمى في وقت مبكر، عندما كانت فتاة تحمل القمح إلى الطاحون وتعجب بالفتى طلال الذي دفع عنها سماجة الأطفال الذين شبوا عن الطوق، فتركن إليه، وتتعدد لقاءاتها به، وتطيل الحديث معه، وتعلم أنه يتيم من أسرة فقيرة، وأنه يطمح في مواصلة الدراسة ليصبح طبيباً[١]. وأن أسرته من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم[٢]، وعندما انقطع عن المجيء إلى الطاحون طلبت من أمها أن تعفيها من الذهاب إليها لأنها كبرت فأعفتها[٣].

وتظهر جرأتها أكثر وضوحاً وقوة في إخبارها شقيقها بحبها لطلال عندما تكتشف أنه صديقه وزميله في الدراسة بمدرسة البعثات وفي الترشح للسفر لدراسة الطب في القاهرة، وتطلب منه أن يحدثها كل شيء عنه لأن حبه راسخ في أعماقها[٤].

وهذه المكاشفة في مثل بيئة سلمى تقتضي جرأة غير عادية، ويزداد شعورنا بهذه الجرأة عندما يحادثها طلال هاتفياً لأول مرة بعد خمسة عشر عاماً من لقاءات الطاحون، فتخبره أنها أمضت السنوات الماضية على ذكريات تلك اللقاءات[٥]. وينسج الكاتب موقفاً يُظهر جرأتها في إظهار عاطفتها في لقائهما في القاهرة ومعها أخوها يرويه على لسانها (**قلت: أنسيتنا يا طلال؟ ضحك طلال ولم يقل شيئاً، ولكن أخي هو الذي قال:**

- أنسيت يا بنت أنك فتاة من قباء حتى تقولي ما تقولين وأمامي وأنا

(١) السابق ص١٢.

(٢) السابق ص٤٢.

(٣) السابق ص١٢.

(٤) السابق ص ٢٢.

(٥) السابق ص ٢٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أخوك؟ نظرت إلى أخي بحب وقلت: أنت الذي علمتني قول الحقيقة[١]).

ولعل أبرز سمة يضفيها الكاتب على شخصية سلمى هي العاطفية الشديدة، فلقاءاتها القليلة بطلال في مرحلة الطفولة فجّرت فيها بركاناً من العاطفة، ظل على مدى خمسة عشر عاماً يتوقد في نفسها رغم انقطاع الصلة بينهما تماماً، عاشت خلالها على أحلام لقائه، وعندما حضرت زفاف إحدى زميلاتها أخذت تتخيل أنها تزف إليه على الحلبة نفسها، بل إنها عندما اكتشفت غدره وزواجه بفتاة كندية أثناء دراسته التخصصية في كندا وإنجابه منها ثلاثة أولاد لم تخرج من إسار تلك العاطفية، وأصرت على أن تبقى وفية لها، ولم تستجب لنصيحة أخيها وزوجته بطيّ صفحة طلال والزواج من أحد الخُطّاب الذين ما زالوا يتقدمون لها، وآلت على نفسها ألا تتزوج بعد تحطم حلمها على الإطلاق [٢]. والمدهش أنها تطلب من أخيها أن يسمي مولوده الأول باسم حبيبها طلال[٣]رغم أنها أضاعت أكثر من ربع قرن في انتظاره حتى "نضب زيت السراج"[٤]. وعندما يعود طلال إلى المدينة وقد طلق زوجته الكندية، ويطلب الزواج من سلمى ترفض طلبه انتقاماً لكبريائها المجروحة، وللسنين الطويلة التي أهدرتها في انتظاره، وعقوبة له على غدره، لكنها تعترف لصديقتها سهير أنها ما تزال تحبه[٥].

هذه العاطفية المفرطة التي تألق فيها الوفاء لوعد، لم يكن لديها خلال سنوات الانتظار الطويلة ما يرهص بتحقيقه، فلا اتصال ولا رسائل

---

(١) السابق ص ٥٧.

(٢) السابق ص ٧٤-٧٥.

(٣) السابق ص ٧٤.

(٤) السابق ص ٨٠.

(٥) السابق ص ٧٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

منه، أدت بها إلى التضحية بشبابها وأحلامها ومستقبلها، غير أن الكاتب استطاع أن يوظف تلك العاطفية في الوصول إلى نهاية سعيدة، فجعل طلالاً يقوم بالخطوة التي لا يمكن لهذا النوع من العاطفية أن تقاومها، خطوة مواجهة الحبيبة الغاضبة وجهاً لوجه، والاعتذار عما فرط منه، وطلب المسامحة.. فكان كمن يزيل الرماد عن الجمر المتوقد تحته، فيشتعل اللهيب، وتحترق كل العقبات، طرق بابهم دون سابق موعد، ولقي صديقه القديم شقيق سلمى، ونجح في نفض الغبار عن صداقتهما القديمة، وتحركت لواعج سلمى وهي تسمع صوته في الغرفة المجاورة، وألحت على زوجة أخيها شاهيناز أن تحضر اللقاء، وعندما عادت إلى سلمى تطلب منها مواجهته رفضت أول الأمر، ثم انهارت مقاومتها وبكت على صدرها طويلاً، ثم واجهته وفي نفسها صراع عنيف بين الرغبة في الانتقام وبين الاستجابة للحبيب، ولم يطل هذا الصراع حيث حسم في اليوم التالي على الهاتف: (**سمعت صوته وهو يقول: سلمى... سامحيني.. فلم أتمالك نفسي من البكاء وقلت كلمة واحدة: سامحتك.. قال: ومن كل قلبك... لم أجب وتركت سماعة التلفون تفلت من يدي تتدحرج على الأرض، وابتسامة أخي وزوجته شاهيناز وطلال الصغير تكبر وتكبر وتكبر لتظل شاهدة على كلمتي التي قلت**[1]).

سمة أخرى رسمها الكاتب في شخصيتها هي التدين المعتدل والواعي، وقد أشار إليها الكاتب خطفاً في إحدى خواطرها عندما جاء طلال لزيارتهم حاملاً رسالة من أخيها في القاهرة، وكانت أول مرة تلقاه بعد خمسة عشر عاماً، حيث قررت ألا تتجمل ولا تتعطر ولبست ثياباً محتشمة؛

(١) السابق ص ٨٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لأنها تخاف الله وتتبع تعاليمه[١].

ومما يلفت النظر في هذا التدين الذي نسميه بجدارة (التدين الواعي) هو تجاوزه لكل حواجز المذهبية والطائفية التي تحمل سلبيات كثيرة، وقد برع الكاتب في عرضها ببساطة كبيرة تجعلنا نؤمن أن البيئة التي جرت فيها الأحداث نموذج لتعايش التعددية المذهبية والطائفية وتمازجها، وتجاوز الحواجز والعقبات التي تنشئها حالات التشدد والتطرف، فنحن نكتشف أن سلمى التي أحبها طلال "فتاة نخولية"[٢]، في حين أن طلالاً وأسرته (**من طينة تغاير طينة هذا الصديق**) كما يقول شقيق سلمى لها[٣]. ويتبدى وعي سلمى وتجاوزها لهذه الحواجز عندما تحاول أن تتبين حقيقة موقف أخيها من هذه الفروق بين الحبيبين (**فهو يتأرجح دائماً بين القبول والرفض لأشياء كثيرة إخاله يعرفها، ولكنه لا يريد أن يظهر بمظهر اللامبالي من تقاليد ورثاها ساعة ولدنا، ورغبتنا في التحرر منها عندما كبرنا**[٤]).

وعندما تشهد حواراً بين شقيقها وطلال حول إمكانية تجاوز الموروثات السلبية التي تحول دون تزاوج المختلفين في المذهب والطائفة، وتأكدها من تجاوز طلال لهذه السلبيات، وأنه لا يمانع من تزويج أخته لشقيق سلمى لو طلبها يزداد إعجابها به (**قلت في نفسي: هذا الطفل الذي كبر يظل قمة شامخة كما عهدته... بدا لعيني أشبه بفارس لم يكبُ به جواده في يوم من الأيام**[٥]).

---

(١) السابق ص ٤٢.

(٢) السابق ص ٢١.

(٣) السابق ص ٥١.

(٤) السابق ص ٥٣.

(٥) السابق ص ٥٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وعلى امتداد الرواية، وفي جميع علاقات سلمى بالآخرين لا نشعر بوجود أية حساسية طائفية أو اهتمام بهذه القضية، وهذا الذي يجعلنا نقول: إن صياغة الكاتب لهذا الجانب في شخصية سلمى جعلتها في درجة عالية من الوعي والنقاء من الموروثات السلبية.

وبموازاة هذا التدين الواعي نجد سمة أخرى في شخصيتها هي الحب الشديد للمدينة المنورة، والفخر بالانتماء إليها، والتأثر القوي بموروثاتها الإيجابية، وتظهر هذه السمة في عدد من مواقف سلمى في الرواية. ففي مرحلة طفولتها الواعية كانت تسمع عن هجرة يلطاش إلى المدينة فراراً بدينه من الشيوعية التي أطبقت على بلاده، فتحس بالفخر والنشوة والحب العميق لهذه المدينة (**كنت أحرص على أن تلتقط أذني كل كلمة تقولها، فإنه لفرط حبي لهذه المدينة لم أكن أظن أن في العالم مكاناً يمكن أن يكون مثلها**[1])، وتؤكد أن الانتماء لهذه المدينة يزرع الفضائل في نفوس أهلها، وأنها وجدت هذا في نفسها: (**يقولون إن جيران رسول الله هم أناس خبروا الحياة، حتى إذا ما عرفوها على حقيقتها انضووا طائعين مختارين على الإيثار، وأنا أجد نفسي عندما أوثر أحداً بشيء مما هو عندي - رغم قلة ما عندي - سعيدة وسعيدة جداً**[2]).

وفي موقف آخر تقرر سلمى أن المدينة غرست في أبنائها وبناتها قيماً خلقية رفيعة تتبدى في سلوكهم المهذب (**مؤدبون نحن أبناء وبنات المدينة، غرست في جلودنا هذه الأرض الأدب، ومسحت على وجوهنا بالكثير الكثير من الحياء**[3]). وعندما تتعرف على سهير، وتلمس مدى نبلها ورفعة

(١) السابق ص ١٠.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق ص ٤٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أخلاقها، تربط ذلك بأثر المدينة فيها، وتشعر بحب واحترام عميقين لها (**شعرت أنني لا أحب هذه المرأة فحسب، وإنما أحترمها أيضاً وأقدرها وأجلّها كثيراً، إنني أرى في وجهها صور نقاء أرضي ومتانة أخلاق فتياتها**[1]).

وتعلن سلمى بصراحة وقوة لسارة شقيقة طلال عندما طلبت منها الزواج من طلال بعد عودته من كندا أن الإباء الذي زرعته المدينة في نفوس بناتها يجعلها ترفضه بعد أن غدر بها (**نسيتِ من أنا.. ومن أية طينة نحن بنات قباء..نسيتِ أن الإباء وظيفة من وظائف المرأة في طيبة الطيبة بشكل عام..**[2]).

إضافة إلى هذا الحب للمدينة المنورة، والاحترام الكبير لموروثها الإيجابي نجد الأثر العائلي الإيجابي في شخصيتها، فالحب والاحترام والتعاون هي الصفات السائدة في جميع أفراد عائلتها الصغيرة، وقد ظهرت آثارها في استواء شخصيتها وتعلقها بأبيها وأمها وأخيها، فهي تحسّ بمعاناة أبيها في قلة ذات يده وعمله الدؤوب في البستان، وتنخرط في العمل معه وهي بعد فتاة صغيرة، وعندما يخطفه الموت يغمرها الحزن، وتلوذ بأمها الصدر الحنون الذي تلجأ إليه دائماً، وحبها لأخيها يجعلها تصارحه بعاطفتها نحو طلال وتحدثه بجرأة - كما مر بنا - عن تعلقها به، ورغبتها في الزواج منه. وهذه العلاقات الحميمة بين أفراد الأسرة تجعل التوازن سمة واضحة في شخصيتها، وتبعد عنها احتمالات العقد النفسية والشعور بالاضطهاد أو الدونية، أو المشاعر العدوانية التي تظهر في أبناء الأسر المضطربة والسيئة العلاقات فيما بينها.

---

(١) السابق ص ٦٤.

(٢) السابق ص ٨٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وهكذا يكمل الكاتب رسم السمات الرئيسية لشخصية سلمى، وهي جميعها سمات إيجابية تقترب من النموذجية أو المثالية، تتحلى بالأخلاق العالية: الحب والإيثار والتضحية والوفاء والشفافية والتدين الواعي، والانتماء المخلص للمدينة المنورة التي تفخر بها وبموروثاتها الإيجابية العالية.

الشخصيات النسائية الأخرى:

عرض الكاتب سبع شخصيات نسائية مساندة لشخصية سلمى، جميعها ذات علاقة بها، إما علاقة قربى أو صداقة أو معرفة عابرة.

الشخصية النسائية الأولى بعد سلمى هي أمها، وهي نموذج لنساء الجيل الكادح في المدينة المنورة قبل أن تشهد التطورات الأخيرة: سيرة تصفها ابنتها بأنها (**سيرة امرأة أضاع الزمان شبابها، فغدت كشجرة فقدت طريق الماء**[1]). تعمل بنشاط مع زوجها في مزرعته الصغيرة، كما تصنع من موجوداتها المكانس والألعاب والشراب، وترسل ابنتها لتبيعها للزوار قرب المسجد النبوي أو قرب باب مسجد قباء، إضافة إلى أعباء البيت، وتقوم بتدبير أمور العائلة عند مرض زوجها وبعد وفاته، وتحافظ على عاداتها وتقاليدها وعلاقاتها الوطيدة بصاحباتها[2]، وتغمر ابنتها بحنانها الدافق، وتصبح ملاذها الوحيد بعد وفاة أبيها، وتظهر حكمتها وحسن تعاملها مع ابنتها عندما تعلم لأول مرة بالعاطفة التي تربطها بطلال منذ سنوات طويلة، فلا تسائلها[3]، وتأسى على انتظار ابنتها لطلال، وتعتقد أن زواجها به لن يتم؛ لأنها (**تعرف حقائق ما يجري في عقول أهل**

(١) السابق ص ٦.

(٢) السابق ص ٢٠.

(٣) السابق ص ٤٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المدينة[١]). فهي الوحيدة في الرواية التي توقن بأن الأعراف السلبية ستقف عائقاً دون تحققه، ولكنها ما تلبث أن تفارق الحياة قبل أن تشتد أزمة سلمى وتتركها في حزن وفراغ قاس، وتترك في نفوسنا انطباعاً بأنها صورة للأم الطيبة الكادحة والمتفانية في رعاية أسرتها، وفي توزيع حبها بين ابنها وابنتها الوحيدين دون تمييز بينهما. ويحرص الكاتب على أن يظهر هذا التوازن عندما تسألها سلمى وهي طفلة: (**لماذا يحب الرجال والنساء الأولاد؟ "قالت في هدوء: لأنهم يحبون أنفسهم، يريدون لأسمائهم أن تظل، ولذكراهم أن تبقى، يريدون لحياتهم أن تستمر، ولعطائهم أن يعيش. "والمرأة يا أماه؟ تساءلت ببراءة واضحة.. أجابت أمي: تتزوج وتنجب للغير أولاداً وبناتاً ثم تمضي**[٢]).

وهكذا ترسّخ في نفس ابنتها أن ذلك التفضيل من سلبيات المجتمع، ومن تضحيات المرأة، لذا لا تظهر في شخصيتها ولا في مواقفها أية آثار لقضية الذكورية، (**ومن يومها أخذت أفكر في هذا الأمر بجدية وأقول في نفسي: لو تزوجت لما فكرت كثيراً في هذا الأمر بجدية**[٣]).

الشخصية المساندة الثانية هي سعاد زميلة سلمى في التدريس، وأقرب الشخصيات النسائية إليها بعد أمها؛ لأنها الوحيدة التي تفهم مشاعرها الحقيقية[٤]، تشاركها فرحها وحزنها. والصفات القليلة التي يسوقها الكاتب لهذه الشخصية هي صدق مشاعرها وضعفها مقابل قوة سلمى، فهي تعيش - أول تعرف سلمى عليها - أزمة الخوف من العنوسة، ولا تخلو من

(١) السابق ص ٦٨.

(٢) السابق ص ١٠-١١.

(٣) السابق ص ١١.

(٤) السابق ص ٧٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بعض السوداوية والانطواء، ولا تجرؤ على أن تبوح برغبتها في الزواج من شخص معين، وتنتظر أن تقوم سلمى بكسر حاجز التقاليد وإظهار رغبتها بالزواج ممن تحب لتخطو في أثرها، ولكن سرعان ما يتقدم إليها خاطب مناسب وتقبل به بعد أن تشجعها سلمى، وتنقلب أحوالها بعد خطبتها، وتتخلى عن سوداويتها، وترافق سلمى في سفرها إلى القاهرة كي تحضر منها ثوب الزفاف، ثم تنغمس في حياتها العائلية، وتنجب أربعة أولاد وبنتاً، وتبقى صديقة مخلصة لسلمى، تحضها على الزواج بغيره عندما تعلم أن طلالاً غدر بها، ثم تحضها على الزواج منه عندما يعود ويطلب يدها..

لذا فالمواقف التي يعرض الكاتب فيها شخصية سعاد لا تكشف الكثير من ملامح شخصيتها، ولكنها تترك فينا انطباعاً إيجابياً عنها من خلال مساندتها لسلمى ووفائها لها على امتداد الرواية.

الشخصية النسائية الثالثة التي تظهر في الرواية هي سهير، يعرض الكاتب سيرتها في سرد طويل تقصه بنفسها على سلمى بعد أن تتوثق العلاقة بينهما، وهي مديرة المدرسة التي عُيّنت فيها سلمى بعد تخرجها، تكبرها بعدة أعوام، ذات شخصية نافذة، مثالية في وعيها وحكمتها وتدينها، وفي تمثيل النموذج النسائي المتميز لابنة المدينة المنورة، لذا تعجب بها سلمى أيما إعجاب. وهي أيضاً تمثل حالة من الحالات التي ظلمتها الأعراف الاجتماعية السلبية، فقد نشأت في أسرة من أسر المدينة العريقة، ونُذرت منذ صغرها أن تكون لابن عمها، وأطاعا هذا النذر وتزوجا، ثم اكتشف كل منهما أنه مختلف كل الاختلاف عن الآخر، فسهير متدينة وعلى خلق عال، بينما زوجها (**من الذين ينسون تقاليدهم فور أن يضعوا أقدامهم على أرض مدينة جديدة، وقد يذهبون أبعد من ذلك، فيدفعون بنا نحن أخواتهم ونسائهم إلى أشياء يخالونها جميلة، وهي يا سلمى على**

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عكس ذلك تماماً، قبيحة ولا تتناسب مع بيئتنا وعاداتنا[١]). لذلك تقطع شهر العسل عندما يريد منها زوجها التحرر (**حتى من خدش الحياء الذي يجب أن نحافظ عليه وهو شيء أرفض أن أراه أو أن أعايشه أينما كان**[٢]). وبهدوء وحكمة تحصل سهير على الطلاق وتتفرغ لعملها، موقنة بأنها فعلت الصواب حفاظاً على إيمانها وعلى انتمائها للمدينة التي صنعت النور (**نحن يا سلمى من مدينة صنعت النور... مدينون بسلامة تفكيرنا لذلك الإيمان الذي يعتمل داخل صدورنا، ولولا هذا الإيمان لضل أكثرنا وتاهت أقدامنا في طريق الأشواك**[٣]).

لذلك وجدت سلمى في هذه الشخصية مثلاً أعلى ونموذجاً، وصورة من صور نقاء المدينة ومتانة أخلاق فتياتها (٦٥).

غير أن هذه الشخصية المتميزة لا تظهر لها مشاركة مهمة في الأحداث التالية؛ إذ يخطبها أستاذ جامعي طلق زوجته الأمريكية، فتتزوجه وتترك المدرسة، وتظل سلمى على صلة بها، تزورها بين الحين والآخر، وعندما يعود طلال ويخطب سلمى تشارك في محاولة إقناعها به (ص٧٨).

الشخصية النسائية الرابعة التي يحشدها الكاتب في الرواية ويحملها شيئاً من قضايا المرأة في مجتمع المدينة هي شخصية المدرّسة فريدة، التي يعرضها خطفاً ولمرة واحدة؛ لتكون شاهداً على خرق قاعدة مهمة في الرواية هي قدرة العلم على تحسين أحوال المرأة في المجتمع، وانعتاقها من التقاليد السلبية، فقد دأب الكاتب على ترداد هذه المقولة على لسان سلمى وسهير وسعاد[٤]، مستشهداً بما وصلت كل منهن في حياتها إلى

(١) السابق ص ٦٣.

(٢) السابق ص ٦٤.

(٣) السابق ص ٦٣.

(٤) السابق ص ٥٠-٦٢-٧٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

القدرة على إدارة شؤونها دون النظر إلى التقاليد السلبية، فسلمى تتحدى تقاليد الكبت العاطفي وتبوح بحبها لطلال وتصر على الزواج منه، وسهير تحصل على الطلاق من ابن عمها عندما تكتشف أنه مختلف عنها ولا تستطيع التعايش معه، وسعاد تسافر مع صديقتها إلى القاهرة وحدهما. فكل هؤلاء (**منحهن العلم فرصة الانعتاق من ظلم الحياة في تلك الأيام**[1]). أما فريدة فقد انصاعت لمن أرادوا لها زوجاً، لم تتح لها فرصة معرفة شيء عنه، (**فظلمها الزوج، وأذاب نضارتها، وذهب جمالها، وأودع في قلبها خشونة هي في غنى عنها**[2])، ولم تستطع أن تفعل ما فعلته سهير، فصارت الاستثناء من قاعدة (**العلم فرصة للانعتاق من ظلم الحياة**). ولا يقدم لنا الكاتب أية تفاصيل عن هذه الشخصية حيث تغيب نهائياً بعد تلك العبارات.

الشخصية الخامسة هي سلوى التي تحمل شيئاً من معاناة المرأة بسبب بعض السلبيات الاجتماعية، وهي مدرّسة صغيرة السن (**في وجهها براءة الطفولة، وفي عينيها حنان دافق تحس به الطالبات والمدرسات وحتى عاملات النظافة**[3]). والتي آلت على نفسها ألا تتزوج؛ لأنها ابنة زوجين فرّق بينهما الطلاق وهي صغيرة، والمفارقة التي يسوقها الكاتب في الرواية أو يقع فيها هو أن سلمى تشفق عليها، وتكثر الحديث معها إلى أن تثق بها وتجعلها تتنازل عن أفكارها، في الوقت الذي ترفض فيه سلمى الخُطّاب بعد أن غدر بها طلال، بل وتسعى سلوى لإقناع سلمى بالزواج من أبيها الذي يقاربها في السنّ ولكن سلمى تتنصل من الموضوع بلباقة.(ص٧٥).

---

(١) السابق ص ٤٥.

(٢) السابق نفسه.

(٣) السابق ص ٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وثمة شخصيتين نسائيتين في الرواية، لسن من بنات المدينة لكنهن انتقلن إليها للعيش فيها مع أزواجهن:

الشخصية الأولى: شاهيناز، زوجة شقيق سلمى، وهي مصرية من أصول إيرانية، تقوم بينها وبين سلمى علاقات محبة وطيدة، فهي تقف إلى جانب سلمى في محنتها، وتسهم في إقناعها بالزواج من طلال أخيراً، وهي شخصية إيجابية، ونموذج للزوجة المحبة، والتي تعمل - رغم أنها تصبح أماً لخمسة أطفال - في عيادة زوجها عدة ساعات يومياً.

والشخصية الثانية: زوجة يلطاش صديق العائلة، وهي مكية من أصول بخارية، ونموذج للزواج الناجح رغم فارق السن الكبير بينها وبين زوجها، ورغم أنها مثقفة ومن أسرة غنية. ولا نجد لها حضوراً مهماً في أحداث الرواية.

وكذلك شخصية خالة طلال وأخته سارة تمرّان في مشاهد قصيرة، ولا تحمل أياً منهما سمات مميزة أو دلالات لقضية من قضايا المرأة، فالأولى تهتم بسلمى في حفلة زفاف سارة؛ لأنها تعلم بحب طلال لها، والثانية تسعى لخطبة سلمى لأخيها بعد عودته من كندا ولكن سلمى تصدها.

وهكذا تظهر الشخصيات النسائية المساندة في الرواية بصفات إيجابية تمثل الأخلاق الفاضلة والسلوك القويم لبنات طيبة الطيبة، كما أن بعضهن يمثلن نماذج من معاناة المرأة فيها، بسبب بعض الأعراف السلبية مثل سهير وفريدة.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الشخصيات النسائية في رواية (جاهلية): تتصدر الشخصية النسائية أحداث هذه الرواية، وتشكل البؤرة التي تنطلق منها وتعود إليها، وتتوزع في مواقع متباينة في الحضور والمساحة وإدارة الأحداث، فتشغل واحدة منها (شخصية لين) معظم الرواية، وتتقاسم الشخصيات الأخرى بقية المواقع بنسب متفاوتة، بعضها يمر خطفاً في موقف واحد لا يتكرر، وسوف نتتبع في الفقرات التالية كلاً منها، ونرصد سماتها، والقضايا التي تجسدها، والرسالة التي تحملها إلى المتلقين.

أولاً: شخصية لين:

لين هي الشخصية المحورية التي أدارت الكاتبة أحداث الرواية حولها، ووظفت الشخصيات الأخرى لإضاءة جوانب من سماتها وانفعالاتها ومكونات رؤيتها، واستخدمت تقنيات التداخل السردي بين الحاضر والماضي، وتوارد الخواطر بالتداعي، وتقاطع المشاهد، في ذلك التوظيف، فانتشرت سمات هذه الشخصية في جميع فصول الرواية، تظهر واحدة بعد أخرى، ولا تتكامل إلا في نهاية الرواية.

وبقدر ما حرصت الكاتبة على رسم الخريطة النفسية لهذه الشخصية تجاوزت الصفات الجسدية مكتفية بملمح يرد في بعض المواقف يشير إلى جمالها الذي لم يكن جمالاً ساحقاً، ولكنه لم يكن جمالاً عابراً[1]، وأن عينيها سوداوان[2]، وكأنها تحصر أنوثتها وجاذبيتها في مكوناتها النفسية وشخصيتها العامة.

وأول سمات شخصيتها **التميز**، ويبدو هذا التميز في مواقف كثيرة ترد

(١) رواية جاهلية للكاتبة ليلى الجهني ص ١٥٥.

(٢) السابق ص ١٥٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

متباعدة في الرواية، فهي متميزة في انفعالاتها وفي عاطفتها، وفي تعاملها مع حبيبها، وفي موقفها من مسلمات مجتمعها، وفي وحدتها وغيبة الصداقة الحميمة عن جميع مواقفها وخواطرها في الرواية، فهي قادرة على ضبط انفعالاتها إلى درجة غير عادية، تواجه ثورة أخيها هاشم بهدوء غير عادي (**عندما ينظر إليها غاضباً لا تفعل شيئاً غير أن تبتسم بهدوء، ثم تعود لما كانت تفعله، كم يذبحه هدوؤها، عندما يصرخ في وجهها لا تفعل شيئاً غير أن تتركه دون أن تفكر في الرد عليه، وعندما وجدته يفتش في غرفتها ما الذي فعلته؟ هل ثارت، هل صرخت في وجهه ؟ لا، لا، لا، لم تفعل شيئاً غير أن استندت إلى حافة الباب عاقدة يديها على صدرها تراقبه، وهو يغادر غرفتها مرتبكاً دون أن يحمل دليلاً واحداً يبرر لأبيه ثورته عليها**[1]). وعندما يصارحها مالك بحبه الذي كانت تحس به، وتشعر بالكلمات تتلجلج على شفتيه لم تنفعل، ولم تكشف له حقيقة مشاعرها (**ظنت أنه ما أن يقول لها أحبك حتى تبتسم وتستند بظهرها إلى ظهر كرسيها، لكنها لم تفعل، بدت الكلمة مختلفة عما في خيالها، وعندما صارت حقيقة غدت هي أيضاً كائناً مختلفاً عما في خيالها لا يستطيع أن يبتسم أو يستند إلى ظهر الكرسي**[2]).

وعندما طلب منها فرصة كي يسمعها الكلام الكثير الذي في نفسه (**قالت بنبرة هادئة: ولم لا**[3]).

وفي إحدى تداعياتها التي تكشف بعض سمات شخصيتها تبوح بالتميز الذي كانت تشعر به قبل أن تصدمها محاولة أخيها قتل حبيبها مالك،

---

(١) السابق ص ١٧-١٨.

(٢) السابق ص ٦٢.

(٣) السابق ص ٦٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

فتلوم نفسها على استحكام ذلك الشعور في شخصيتها والآلام التي نتجت عنه (**كيف ظنت أن الآخرين سيهادنون وعيها إن لم تستطع فرضه عليهم، وكيف ظنت أن المجابهة ستكون هينة؟ ولم حسبت أنها مختلفة..... لم اعتقدت أن مصيرها بيدها وأن حياتها لها ولن يسلبها منها أحد**[١]). هذا البوح المتأخر بتضخم ذاتها جعل ((التميز)) سمة ظاهرة في شخصيتها، يدركها من يقابلها أو يتعامل معها، وقد أكدها مالك الذي أسرته شخصيتها وجعلته يغرم بها، فقال لها بصراحة: (**منذ أن عرفتك أدركت أنك طائر نادر**[٢])، كما أكدته هي بنفسها في حوارها الداخلي مع ذاتها عندما جعلته دافعاً لأعمال تختلف بها عن الأخريات، فقد تساءلت خلال تداعيات خواطرها (**ما الذي يدفعها لأن تعتقد أنها مختلفة عن الأخريات من حولها؟**) وأجابت عن تساؤلها بما يشعرنا باستحكام سمة (التميز) في نفسها (**مختلفة لأنها إن أرادت أن تقود سيارتها فإن أباها لن يمانع؟ مختلفة لأنها استخرجت بطاقة أحوال خاصة بها؟ مختلفة لأنها تسافر وحدها؟ مختلفة لأن جوالها ومعظم ممتلكاتها مسجلة باسمها وليس باسم أبيها أو أخيها**[٣]).

ومن سمات تميزها ـ كما تصورها في تداعيات خواطرها المتأخرة ـ إيمانها بأن (**على المرء أن يعيش وفق ما يفكر، اصطدمت بكثيرين ممن حولها بسبب هذا المبدأ، الذي يَنُمّ عن سذاجة، ويناقض أسلوب الحياة السائد في بلادها**[٤]). فقد كانت لا تقبل ما ارتضاه الآخرون دون نقاش[٥].

(١) السابق ص ٩٥.
(٢) السابق ص ٦٤.
(٣) السابق ص ٩٥-٩٦.
(٤) السابق ص ١٠٩.
(٥) السابق ص ٦٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وهذا عنوان كبير للشعور بالذات، بل ولتضخمها وتأكيد استقلاليتها في كل شيء، وكان من ثمار هذا الشعور بالتميز جرأة غير عادية في الاستجابة لطلب مالك لقاءها بصورة أذهلته فقد (**جهز نفسه لأسوء احتمالات؛ لأنه لم ينتظر غير (لا) حادة، أو اعتذار مبطن، لكنها خيبت كل ظنونه..... قالت له: نلتقي وما المانع؟**[١]).

وعندما قابلته لأول مرة في كافتريا فندق شيراتون لم تتردد في أن تطلب منه أن يتصل بها (**لا يمكنني المكوث طويلاً سأنتظر اتصالاً منك**[٢]). وما تلبث أن تحاور نفسها في حبه الذي صارحها به، والذي وجدت في نفسها صداه، وتقرر أن تستجيب بجرأة ووضوح لهذه العاطفة (**لقد أدركت أنها لن تقبع تحبه في الظل الساكن للنفاق والتناقض اللذين يغلفان الحياة من حولها**[٣]).

وقد أورثتها جرأتها التي هي جزء من تميز شخصيتها سمة العناد الذي ظهر في مواقف عدة في الرواية، في حبها لمالك (التكروني الأسود)، وإصرارها على الزواج منه، ومحاولتها إقناع أبيها بذلك، وهي تدرك أنها ستلقى المتاعب الجمة من مجتمعها[٤]، وحتى في تعاملها مع حبيبها الذي لمس هذه السمة فيها وصورته الكاتبة على هذا النحو:

(**قال لها مالك مرة: أنت عنيدة جداً. ابتسمت ابتسامة مشاكسة رافعة حاجبيها، وهو يقر أن ذلك أمر لا بأس به إن كان الموضوع يستحق العناد لكنه ينقلب إلى أمر مستفز عندما يكون عناداً رغبة في العناد**[٥]). ولا

(١) السابق ص ١٥٤-١٥٥.

(٢) السابق ص ٦٥.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق ص ١٢٣.

(٥) السابق ص ٦٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

تكتفي الكاتبة برسم هذه السمة من خلال المواقف وآراء الآخرين، بل تضعها في يقين الشخصية ذاتها، ففي إحدى تداعيات خواطرها تتساءل عن سر إصرارها على مواجهة المجتمع بحبها غير العادي، أي حبها لشخص أسود اللون، وترى (**ظنت لفرط ما هي عنيدة أنها قادرة على المواجهة**[1]).

وطبيعي أن يورث الشعور بالتميز والعناد صاحبه انفراداً لا يحسن فيه بناء صداقة حميمة، لذلك لا نجد في الرواية أية صديقة تساندها، وعلى العكس من ذلك نجدها تكبت مشاعرها وتخفي انفعالاتها خشية أن يراها الآخرون (**كان يرعبها أن يطلع أحد - أي أحد - على اضطرابها إزاء مشاعرها وما تخلفه وراءها من ضعف، لذا قاومت إلى حد أنها اقتنعت أنها ليست في حاجة لأن تحكي لأحد عما يعتلج في أعماقها الشخصية**[2]). وبقدر ما تكون هذه السمة قوة وجزءاً من تعاظم الذات بقدر ما هي جزء من أزمة تظهر جلية عند الصدمات القوية، أو في مواقف يُصرُّ فيها صاحبها أو صاحبتها على السباحة ضد التيار، وهذا ما بدا جلياً في مواقف لين وسلوكها.

ومن سمات شخصية لين ثقافتها الواسعة، (**فقد قطعت مرحلة من عمرها في الدراسة فأنهت المرحلة الثانوية في مدينتها، والتحقت بجامعة الملك عبدالعزيز في جدة، وعاشت سنوات الدراسة الجامعية في سكن الطالبات، وكانت لحظة تخرجها من لحظات عمرها التي لا تنساها**[3])، وهي مغرمة بقراءة الكتب إلى درجة يستغرب فيها أخوها هاشم كيف تضيع أنوثتها بين الكتب (**يتساءل أحياناً ما الذي يعجبها غير الكتب؟**

(١) السابق ص ١٣٦.

(٢) السابق ص ٦٤.

(٣) السابق ص ٦٣.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وهل تستمتع بشيء غير القراءة؟ لا يعنيها من أمر الزينة إلا أقل القليل فبماذا يمكن أن تغري رجلاً... إذا كانت لا تفعل شيئاً غير القراءة[١]) (**وربما لا تستمتع بحياتها بعيداً عن كتبها وعملها... يظن أحياناً أنها لا تعرف الفراغ، وعندما يراها منكبة على أوراقها وكتبها تكتب أو تقرأ، أو جالسة أمام شاشة الكمبيوتر تراجع ما كتبته يحسدها إذ يدرك أنها تفعل ما تفعله باستمتاع كبير**[٢]).

وتأسى عليها أمها التي لا تفقه من معالم الثقافة شيئاً عندما تراها مستغرقة في كتبها وأوراقها وقد بلغت الثلاثين من عمرها، فترمقها بحسرة وهي تراها (**وسط أكداس كتبها وأوراقها، وربما تساءلت فيم أخطأت حتى جاءت ابنتها هكذا ؟ وهل ستظل عالقة إلى الأبد بالكتب والكلمات التي لا تفهمها ولا تريد أن تفهمها، وربما كانت تتساءل عما تجده ابنتها وسط هذا العالم الذي يحيط بها، عالم لا شيء فيه سوى الكتب المنتظمة فوق الأرفف، أو المكدسة قرب سريرها، عالم من الورق**[٣]).

وقد حرصت الكاتبة على إظهار أثر ثقافتها في ملمحين آخرين: الأول: في تميزها في عملها مشرفة اجتماعية في دار رعاية اجتماعية للنساء، فكان لها دفتر صغير تسجل فيه أفكارها عن الحالات الملفتة التي تصاب إزاءها بالصمت وتضطر إلى الوقوف والتأمل[٤]، والثاني: في اهتمامها بألوان غريبة من الثقافة توردها في إحدى تداعيات خواطرها مثل (**كتب**

(١) السابق ص ٢٨-٢٩.

(٢) السابق ص ٣٧.

(٣) السابق ص ١١٤.

(٤) السابق ص ٧٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التشريح التي اطلعت عليها مرات وهي تُنَقِّب في مكتبة الجامعة أثناء دراستها تذكرت غلافه الأصفر صفرة (المستردة) وقد كُتب عنوانه بلون بني محمر، عبرتها كل الصور والرسوم التوضيحية التي ملأت مجلداته الثلاثة أجساد موتى ووجوههم[1]).

ثنائية العاطفة والعقل:

تثير شخصية لين في نفس الدارس حيرة في تصنيف علاقتها بمالك، أهي عاطفة (متميزة) على نحو ما تميزت به جوانب شخصيتها الأخرى، أم هي العاطفة المتعقلة، التي تختلط فيها الدوافع الوجدانية بالقناعات العقلية وحساباتها، فلين الفتاة المثقفة التي مرت بكل المراحل التي تمر بها الفتاة من الطفولة إلى المراهقة إلى الشباب الناضج لا نجد في تداعيات خواطرها أي تاريخ عاطفي، وعندما تبلغ السابعة والعشرين من عمرها تلتقي (مالك) الشاب التكروني تحت مظلة (دراسة اجتماعية) يُعدّها مالك لإحدى الصحف عن هروب الفتيات، وطبيعي أن تكون الأخصائية الاجتماعية التي تعمل في دار الرعاية الاجتماعية مصدراً خصباً لهذه المعلومات، وخلال اللقاءات القليلة والمتباعدة (سبعة أشهر) لاستقطاب المعلومات ينجذب مالك إليها، ويطلب لقاء خاصاً بها فتستجيب بلا تردد، وتسمع منه مكاشفته بحبها، وتجد صداها في نفسها، ثم تتطور العلاقة وتغرم به، وتعقد العزم على مواجهة العقبات الكبيرة لتتزوجه، بل يبلغ بها الأمر أنها عندما تمتد علاقتها سنتين دون أن يفاتحها برغبته في الزواج منها أن تبادره هي بالإشارة إلى ضرورة التعجل بزواجهما، ولم تكن تدري العقبة الكبيرة التي يسعى لتجاوزها دون طائل، عقبة حصوله على الجنسية السعودية التي لم يحصل

(١) السابق ص ٥٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

عليها رغم أنه ولد وعاش أكثر من ثلاثين سنة فيها.

فكيف أغفى قلبها السنوات الطويلة قبل أن يدق بابه مالك؟ وهل غاب عنها الخُطَّاب حتى بلغت السابعة والعشرين وهي ذات جمال معقول ؟ وهل كانت استجابتها لعاطفة مالك نتيجة (فراغ) عاطفي ـ اختياري أو إجباري ـ تعيشه حتى تلك المرحلة ؟ وهل كان لهذا الفراغ بُعده وحساباته العقلية التي أسهمت في تعلقها به ؟ وما تفسير استجابتها لمكاشفته الأولى رغم أنها أدركت وللوهلة الأولى ما سوف تكابده في سبيل هذه العاطفة القادمة ؟ ولم نامت (المرأة) فيها كل تلك السنوات ثم استيقظت على كلمة (أحبك) التي قالها مالك وهو في حالة من الاضطراب لم تغب عن عيونها ؟.

إن التفسير الذي قدمته لين في تداعيات خواطرها بأنها أغرقت نفسها في الكتب غير كاف لإقناع الدارس بغيبة مشاعر الأنوثة وسبات العاطفة فيها كل هذه المدة دون أن يكون فيها فارس أحلام أو إحساس بفراغ عاطفي، وإن طبيعة التميز الذي ألحت على تأكيده يجعلنا ندقق في موقف ظهور عاطفتها نحو مالك وتطورها على النحو الذي عرضته الكاتبة. فقد أحست لين بما في نفس مالك من عاطفة نحوها قبل أن يكاشفها بها ، وهذه غريزة الأنثى التي تدرك الدلالات القريبة والبعيدة للكلمات وللأصوات ولو لم تكن صريحة ، فكيف بالأنثى المثقفة والأخصائية الاجتماعية؟. وقد عرضت الكاتبة في خواطر(لين) هذه الحقيقة بوضوح **(بدا لها غريباً أن تحس بكل ما نما في أعماقه ، وأن تشعر بالكلمات تتلجلج على شفتيه في كل مرة يتصل بها دون أن يقولها ، أن ترى نفسها وهي تمنحه الوقت كي يقول كلماته ، تطيل أمد المكالمات ، وتفتعل أسباباً كي يعاود الاتصال بها ، أو غير ذلك من الحماقات الصغيرة التي**

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أربكها أن تقترفها، فقط لأنها أحست بما في أعماقه[١]).

إذن لم تكن مكاشفة مالك بعاطفته للين مفاجأة، بل كانت تتوقعها وتنتظرها، وتحاول مساعدته على البوح بها، وعندما حدث ما كانت تنتظره لم تكن عواطفها هي المتحكمة الوحيدة بموقفها، فسرعان ما تدخل عقلها ومقاييسها وتَميُّزها في الموقف، فنظرت إلى البعيد، إلى ما سيترتب على استجابتها لهذه العاطفة، وإلى نظرة الآخرين إليها بمقاييسهم المختلفة عن مقاييسها، وإلى المواجهة التي ستخوضها معهم، لأنها لن تخفي هذه العاطفة، فهي إذن تحوِّل الموقف العاطفي إلى موقف تفكير عاصف، أو على الأقل تخلطه به، تصفه الكاتبة بدقة (**حفّها صمت مقلق، وانطلقت خيول الخوف تعدو مهتاجة في أعماقها، لم يكن خوفها من الحب، بل من نفسها، لقد أدركت أنها لن تقبع تحبه في الظل الساكن للنفاق والتناقض اللذين يغلفان الحياة من حولها**[٢]).

ويؤكد الحضور الكبير لعقلها تصوُّرُها لطبيعة العاطفة التي ينبغي أن تقوم وتنمو بينهما، فهي تريدها عاطفة تبادلية بمقدار متساوٍ (**ظنت أن عليهما أن يبدءا ندّين من البداية، ليس ثَمَّ طرف يعطي وآخر يشعر بامتنان**[٣]).

وقد نمت هذه العاطفة بامتداد التواصل بينهما، واكتشاف لين ميزات عالية في شخصية مالك تطغى على مفارقة اللون بينهما (**لقد أحبت إنساناً، أحبت قلباً من ذهب، ولم تنظر إلى اللون**[٤]).

وتعرض الكاتبة مواقف ترتقي فيها العاطفة إلى درجة عالية من

(١) السابق ص ٦١-٦٢.

(٢) السابق ص ٦٥.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق ص ٥١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التوقد، تذكرنا بمشاهد العشق التي تبدأ بعواطف رومانسية تدور في نفس كل من الحبيبين، ثم تجد طريقها إلى الانطلاق أبعد من ذلك، وتبدو الكاتبة حذرة في تصوير هذا الانطلاق كي لا يصل إلى درجة التفلت والجنس، ولكنه لا يخلو من الالتصاق وتداخل الانفعالات النفسية بخارطة الجسد (**في البداية وقفت هي ومالك وقد انتصب بينهما هذا السياج الشفاف، بسط يده عليه، فبسطت يدها من الجهة المقابلة، ولم يكن هناك دفء، تلاصقا فأسندت رأسها إلى صدره تحت ترقوته اليمنى، وكان عاجزاً عن أن يحيطها بيديه ويشعر بتفاصيل جسدها، شعرت بحنق متعاظم وهي تحرث بأظافرها سهل صدره القابع خلف السياج، ثم بغتة تمزق جزء من الغشاء الشفاف الحائل بينهما، تماماً تحت عظمة ترقوته اليسرى وفوق قلبه، وطفقت توسع الثغرة قليلاً قليلاً حتى استطاعت العبور إليه ولمسه، وفي كل مرة كانت تعبر الثغرة إليه فتلمسه وكم أحبت أن تلمسه**[1]).

في هذه المرحلة استيقظت الأنوثة في شخصية لين، ولكن هذه الأنوثة لم يغب عنها العقل، ولم تسقط في حمأة الغريزة المستعرة. وقد نجحت الكاتبة في النجاة من مزالق المشاهد الجنسية عندما أدخلت إلى المواقف العاطفية لوناً عقلياً، فيه وصف لحوار شخصين ناضجين يفكران في المستقبل، ويسمران في تفاصيل حياتية صغيرة، ولوناً من الخيالات الرومانسية الجميلة التي تشكل معادلاً تصورياً للعواطف العذرية وليس للغرائز النهمة. (**أحبت أن تجوس يدها خلال عشب صدره وهما يتكلمان قليلاً عنهما، عما ينتظرهما، وكثيراً عن الحياة وملاحقها، عن الإتحاد فريق الشعب، والهلال فريق الحكومة، عن مسابقات الكلمات المتقاطعة**

(١) السابق ص ٧٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التي تجمعها في درج مكتبها كي يحلاّها معاً ذات فجر، عن أغنيات طاهر كتالوج التي يرددها لها فتضحك وتحبه أكثر فأكثر.

في كل مرة جاست يدها خلال عشب صدره كانت تلمح غزالة صغيرة ترعى الأطراف، لها لون رملي، وعيناها واسعتان لامعتان، تراصت فيهما نوافذ صغيرة بيضاء تطل على أفق لا تعرفه، غزالة وحيدة في فلاة غير مسيجة بالقناصة[(١)].

وعندما طالت مدة العلاقة العاطفية دون أفق يحدد مستقبلها لم تتردد لين في إبلاغ مالك بقلقها وبضرورة وصولها إلى شاطئ الارتباط الأبدي، إلى الزواج. فبعد مرور عامين على علاقتهما (**سألته بنبرة محايدة: مو كأننا طولنا وإحنا نحب في بعض؟ وفهم ما تقصده، وأحبها كثيراً لأنها قالته بتلك الطريقة والنبرة**[(٢)]).

ويظهر التداخل العقلي والعاطفي في علاقتها بمالك عندما قرّ في نفسها أن شخصية مالك تستطيع أن تتملكها وتحل خيوط أزمتها- التي سنتحدث عنها بعد قليل - والتي صورتها الكاتبة بصورة تعبر بكل دقة عن أبعادها وعمقها، صورة تجمع بين البراءة والتوحش، والتميز والانعزال (**كيف يمكن لها أن تفر مما يقبع هناك في أعماقها؟ كل الخدع التي تمارسها كي تفر تقودها إلى الجب العميق، وهي تخاف مما في داخله، ويخيفها أن تطلع فترى الطفل المنعزل المتوحش الكائن هناك، كان مالك قادراً على ترويض ذلك الطفل**[(٣)]).

وبقدر ما تطول الأيام دون أن ترى النهاية السعيدة لعلاقتها بمالك يعلو

---

(١) السابق نفسه.

(٢) السابق ص ١٦٠.

(٣) السابق ص ٦٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

صوت العقل على العاطفة، ويتحول حوار المحبين إلى جدل عقلي، فمالك الذي أخفى عن لين أنه لا يحمل الجنسية السعودية (ولا تسميها الكاتبة باسمها بل باسم صك الغفران) كان يسعى للحصول عليها، ويؤخر مصارحته لها أملاً في نيلها، ولكن لين ينفد صبرها في العام الثالث، وتشعر أن مالكاً يتهرب من مصارحتها بالمأزق الذي يعيشه (**سألته مرّات بعد ذلك عن المأزق، سألته ضاحكة، قلقة، محتدة، ثم جاءت مرة قالت له فيها: عدم الفهم يؤلم، وأنا حاولت أن أفهم لم تماطل لكني فشلت، ولم أعد قادرة على الاحتمال، كما أنني لا أستطيع أن أبقى في ظل حياتك في بلاد الريبة هذه، مرت ثلاثة أعوام وهذا كثير، أكثر مما توقعت، وأكثر مما يحتمل، وأكثر من أن أغفره لنفسي إذا ما جلست غداً وفكرت في الحكاية بعقلي الذي تعرفه**[1]).

وعندما يكشف مالك حقيقة مأزقه، تثور لين، وتنقلب عليه وتحاكم تصرفه بمزيج من العاطفة والعقلانية، العاطفة المثالية التي ترى أن مالكاً لم يصل إلى درجتها العليا؛ لأنه بإخفائه سر المأزق عنها أوجد مسافة بينهما (**انظر أين وضعتني من حياتك، اعتقدتُ دائماً أنني بشر قريب، قريب جداً، فإذا بي بعيدة، جعلتني أضغط عليك بلا هوادة كي أعرف عنك أمراً يعرفه كثيرون ممن حولك، كثيرون ربما لا تربطك بهم صلات وثيقة**[2]) ورغم أن مالكاً شرح لها أن تصوره للأمر يختلف تماماً عما تصورته، فقد كان يسعى للحصول على صك الغفران بكل جهده، وكان يأمل أن يحمل إليها الخبر السعيد ولا يزعجها بحقيقة معاناته (**لم أرد أن أزعجك، منذ عامين وأنا أسعى وراء تعديل وضعي، وكنت أحلم طوال ما**

(١) السابق ص ١٦١.

(٢) السابق ص ١٠٦.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مضى بأن أخبرك بالأمر بصيغة الماضي، ظننت أني سأحصل على صك الغفران قريباً) رغم هذا التوضيح فإن لين حاكمته بعقلها أيضاً، وأدانت صمته كل ذلك الوقت (**ما الذي جعله يتصرف هكذا؟ أكان خائفاً من ردة فعلها فيما لو عرفت؟ أم كان يحاول أن يجنبها الألم؟ وأي ألم؟! ما كانت لتتألم، كانت ستتفهم المأزق، وستفكر معه كيف يمكنهما أن يتغلبا عليه، وما كانت ستتورط في انتظار ظنته قريباً فإذا هو بعيد**[1]).

الأزمة في شخصية لين:

تتجمع عناصر عدة فرّقتها الكاتبة في ثنايا المواقف وتداعيات الخواطر والحوارات التي وردت في الرواية؛ لتكشف عن أزمة في شخصية لين، رغم كل مظاهر التميز والعقلانية والثقافة التي صبغتها بها، وهذه العناصر مجموعة مشاعر غير متوازنة تشكل أضلاع الأزمة، أهمها: الإحساس بالاضطهاد من جهة أمها، والإحساس بفرط الحب من جهة أبيها، والإحساس بالفراغ العاطفي من جهة أنوثتها.

بدأ الضلع الأول في الأزمة مبكراً في حياة لين عندما كانت طفلة وهي باكورة نسل والديها، والمفترض أن تكون ـ كأية بنت ـ أقرب إلى نفس أمها، فالأمهات غالباً يجدن أنفسهن في بناتهن، ولكن أمها الواقعة تحت ضغط ذكورية المجتمع كانت تتطلع بلهفة شديدة إلى أن يكون لها ولد ذكر، وهذا أشعرها على صغر سنها بتأخر مكانتها (**حاولت لين أن تفهم ما الذي يجعل وجودها غير كاف بالنسبة لأمها، ولم لا يفرحها مثل وجود الذكر التي تتوق له فلم تفهم، ظلت أمها تأخذ بيدها عصر كل جمعة قبل أن تحمل به فتمضيان عبر مسارب باب المجيدي ـ عندما كان هناك باب المجيدي ـ إلى الحرم لتدخلا من باب عثمان، وهناك تنتبذ أمها**

(١) السابق ص ١٠٩-١١٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مكاناً قصياً كي تصلي وتبتهل، وربما بكت، فيما تنشغل لين في نثر الحبوب لحمام يتهاوى رفوفاً في حصوة الحرم المكشوفة والمفروشة بالرمل والحصى، وقد تتطلع بين فينة وأخرى إلى الرجال في الجهة الأخرى من الحصوة[١]).

وعندما رزقت الأم غلاماً ازداد شعور لين بهوانها على أمها، وما لبث هذا الشعور أن تحول إلى إحساس بالاضطهاد مقابل العناية المفرطة بالقادم الجديد، فامتلأ قلبها الصغير بالحزن وبالمرارة التي لا يغسلها عذر (**أسمته أمها هاشماً، ونأت به عن الحياة، وانكفأت عليه، وأخرجتها من دائرة تضمهما، وكم حزنت؛ لأنها عجزت بأعوامها العشرة عن أن تفهم أو تعي.... أو تعذر**[٢]) بل وعجزت عن أن تغفر لأمها هذا الخلل فيما بعد[٣].

وعندما تفتح وعي لين رأت فرط دلال أمها لهاشم لدرجة أفسدته فساءت تصرفاته. وكثيراً ما احتجت على تلك التصرفات عند أمها فأسكتتها بقولها: (**اتركيه يسوي اللي يبغاه. فتدعه على مضض**[٤]).

وقد تفاقم هذا الشعور في نفس لين، وأصبحت تشعر أنها في عالم منفصل تماماً عن عالم أمها، ترى فيه أخاها الفاسد وأمها الفاشلة في تربيتها ومعاملتها لابنتها توأمين سياميين، يضاف إلى ذلك (**غضب الإهمال والتجاهل، والاستخفاف بكل ما حققته في حياتها، لم تكن تعني شيئاً لأمها طوال أكثر من عشرين عاماً**[٥]).

وقد تفجر هذا الشعور في نفس لين، وانقلب من إحساس مكبوت إلى

---

(١) السابق ص ٨٩.

(٢) السابق ص ٩١.

(٣) السابق ص ٩٢.

(٤) السابق ص ٢١.

(٥) السابق ص ٧٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

إعلان تصارح به أمها، عندما حاولت أن تخرجها من المستشفى الذي يرقد فيه مالك بعد أن حاول هاشم قتله، (**ما يجري لي وما أفعله لا يعنيك، لم يكن يعنيك فيما مضى كي أصدق أنه يعنيك الآن، أنت لست حتى خائفة عليّ - يا إلهي رحمتك - أنت خائفة على هاشم**[١]).

الضلع الثاني في أزمة لين مضاد للضلع الأول، ولكنه يوازيه في (الخلل العاطفي) وهو حب أبيها المفرط لها حتى قبل أن ينجبها!! فقد اختار لها اسماً نادراً يكون جديراً بها و(**نما لديه ما يشبه اليقين أنها لن تكون بشراً عادياً، ولم يكن في ذلك اليقين شيء من غرور الآباء وأفكارهم اللامعقولة عن أبنائهم، لا، لو كان ذلك لعرف كيف يتجاهله، كان هدفاً وما دام هدفاً فسيبلغه**[٢]).

ورغم أن الكاتبة لم تعرض المواقف التي تبين للقارئ كيف تجسد هذا الحب وذلك الهدف في رعاية الأب لابنته، سوى أنه يخاف أن يموت وهي صغيرة فلا تجد من يرعاها الرعاية التي يريدها لها[٣]، فإن الإشارات القليلة التي ظهرت في شعورها بالتميز تظهر فرط محبته، فهو لا يعارض قيادتها للسيارة إن أرادت ذلك رغم أنه محظور نظاماً، وهو قد ترك لها الحرية الكاملة في تسجيل ممتلكاتها باسمها، وفي حصولها المبكر على بطاقة الأحوال، وفي سفرها لوحدها. وبمعنى آخر بالموافقة على كل طلباتها، وبحمايتها من تسلط أخيها هاشم عليها عندما كبر، وحضه إياه للتفاهم مع أخته[٤]، ولإدراكها أنه يحبها بطريقة مختلفة ولا يدعي أنه

(١) السابق ص ٧٥.

(٢) السابق ص ١٢٤.

(٣) السابق ص ١٢٨.

(٤) السابق ص ١٩و٣٥.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يفهمها وحسب بل يحياه[١]. وقد ناقش معها بصراحة سبب رفضه تزويجها لمالك عندما خطبها منه؛ لأنه يحبها ويخاف عليها من المجتمع الذي لا يسوغ زواجهما[٢]، وقد أشفق عليها عندما رأى حزنها العميق لما أصاب مالكاً، ورضي أن تزوره في المستشفى وصحبها إليه.

هذه المحبة المفرطة كان من المفروض أن تعوضها عن شعورها باضطهاد أمها لها وتعيد توازنها، ولكننا لا نجد أثراً لذلك في الرواية، الأمر الذي يجعلنا نضيف هذا الشعور إلى مثلث الأزمة، فالإفراط غير بعيد عن التفريط، وحاجة الفتاة لأمها في مراحل نموها ونضجها أكبر من حاجتها إلى أبيها، وشعورها بفرط محبة أبيها كان له نصيب ولا شك في السمات الأخرى لشخصيتها، الشعور بالتميز والجرأة والعناد، والخلل في العلاقات العائلية.

الضلع الثالث في أزمة لين هو الفراغ العاطفي، فلين التي شبت وهي تشعر ببعد أمها عنها، لم تجد ما يملأ فراغها العاطفي فضلاً عن تفتح الأنوثة ومشاعر المراهقة، وغيبة فارس الأحلام عن واقعها وحتى عن أحلامها ـ حسب الرواية ـ إلى أن تبلغ السابعة والعشرين، وهي فترة طويلة في المجتمعات الشرقية تحمل في طياتها مخاوف فوت القطار وشبح العنوسة، والفتاة لا تملك إلا انتظار الذي يأتي ولا يأتي (**الرجل يصنع حياته، أما المرأة فتنتظرها، وبإمكان الرجل مهما تأخر به العمر أن يبدأ من جديد، سيجد امرأة، وسينجب أطفالاً... أما المرأة.. يالعذاب المرأة**[٣]).

وقد عرضت الكاتبة آثار هذا الفراغ في الحزن الشفيف الذي وسم

(١) السابق ص ٦٦.

(٢) السابق ص ٥١.

(٣) السابق ص ١١٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

شخصية لين إلى درجة جعلها تشعر أنه شيء أساسي في الحياة، وأنه علامة على النضج (**فالقلب الذي لا يكلّ بحثاً عن حزن خاص؛ لأن الحزن نضج، فالسعداء والذين يضحكون كثيراً أغرار استخفهم الطيش، أما الحزانى فناضجون، الحزانى أبناء الحياة**[١]).

ويبدو أن الحزن الشفيف دخل إلى شخصية لين منذ طفولتها الواعية[٢]، منذ أن أدركت إهمال أمها لها، فكانت ردة الفعل الكبرى عزلتها ووحدتها، فلا نجد لها صديقة حميمة طوال أحداث الرواية، ولا نجد من تبوح لها بشيء من همومها أو فرحها أو حبها، وهذه حالة غير عادية في نشأة الفتيات والشابات اللواتي بلغن سنها، لا صديقة حميمة أيام الدراسة، ولا حتى في السكن الداخلي للجامعة، ولا في العمل، ولا من الأقارب، أظلمت الكاتبة كل تلك الزوايا، وتركت لين لوحدتها وكبتها وانفعالاتها، ورؤيتها للجوانب السلبية في الحياة والمجتمع. وهذه واحدة من الحالات التي يهتم بها دارسو علم النفس، ويطبقون عليها نظريات كثيرة في التحليل النفسي من الانطوائية إلى العُصاب.

سمة أخيرة أشير إليها قبل أن أغادر هذه الشخصية ألمحت إليها الكاتبة هي: الأثر الديني في شخصيتها، وهو أثر بسيط أشارت إليه الكاتبة في موقفين قصيرين، الأول: نهيها أخاها عن صيد الحمام عندما كان فتى يصيد الحمام على سطح بيتهم (**المدينة حرم يا هاشم، حرام صيد حمامها.... حرام يا هاشم تصيده واحنا جيران الحرم**[٣])، والموقف الثاني: في ابتهالاتها إلى الله أن لا يموت مالك فتتحطم حياتها، وهو ابتهال

(١) السابق ص ١١٣.

(٢) السابق ص ٧٤.

(٣) السابق ص ٢٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

لا يخلو من اضطراب في الرؤية والتصور، تصور الكفر بالعدل الإلهي إن لم يتحقق لها ما تريد: (**قلبها مترع بالأسى وروحها تلوب مضطربة وهي تبتهل: تطلع إليّ يارب، أبتهل إليك يا إلهي نجني مما أنا فيه، أزح عني هذا الحمل الثقيل، واحمني من الشر الذي يتربص بي، أن أكفر بعدلك، خذ بيدي يا إلهي**[١]).

ويتكرر اضطراب التصور في موقف الصدمة التي صدمت بها عندما علمت أن مالكاً لا يحمل (صك الغفران) (**ظنت للحظة خاطفة أن الله في سمائه قد وقف بينهما، غاب العالم خلف ظلال شاحبة من الأسى واليأس**[٢]).

وباستثناء هذه اللمحات الخاطفة لا نجد أثراً للقيم الإيمانية أو للموروث الديني للمدينة المنورة في شخصيتها، مقابل لمحة واحدة - كالبرق - تظهر شيئاً من تعلقها بالموروث العمراني، فقد عرضت الكاتبة في خواطر لين أنها بكت في (**اللحظة التي وقفت فيها على أطلال باب المجيدي والجرافات تعول في جنباته**[٣]).

تلك هي أهم السمات في شخصية لين، محور رواية (جاهلية) والشغل الشاغل لبقية شخصياتها، ولمعظم أحداثها ومواقفها.

شخصية الأم:

الشخصية الثانية في الرواية هي أم لين، كان اسمها سلمى ولم تُدْعَ قط أم لين رغم أنها مولودتها الوحيدة لمدة عشر سنوات، وعندما ولدت هاشماً صار اسمها أم هاشم[٤]. وقد مرّ بنا الكثير من سماتها خلال عرض

---

(١) السابق ص ٥٤.

(٢) السابق ص ١٠٣.

(٣) السابق ص ٦٣.

(٤) السابق ص ٩٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

شخصية لين، نلخصها هنا بأنها امرأة بسيطة، لا نعرف شيئاً من تفصيلات حياتها حتى بعد زواجها سوى أنها أنجبت ابنتها لين وهي في العشرين من عمرها، وكانت تعاني من صعوبة في الحفاظ على حملها فأسقطته مرتين قبل أن تلد هاشماً وهي في الثلاثين ولم تنجب بعده.

وتبدو في الرواية متأثرة بمفهومات المجتمع الذكوري، تتحرق شوقاً لإنجاب غلام يكون سندها وراعيها في كبرها، وتهمل ابنتها لين؛ لأنها أنثى، وتُفرط في دلال ابنها وتلبية رغباته حتى غير العادية، وتغض الطرف عن عاداته السيئة، فيفشل في دراسته وفي الالتزام بعمل جدي عندما يكبر، وينقلب إلى زير نساء همه أن ينال أكبر قدر منهن.

وهذا النموذج من الشخصيات النسائية لا يكون لديه شيء من الاهتمام بالثقافة وتحصيلها، لذلك تستغرب ولع ابنتها لين بالكتب، وترى أنها تضيّع عمرها فيما لا طائل وراءه[1].

ولا نجد أية دلالات على آثار دينية قوية فيها على النحو الذي يوجد في نساء جيلها عادة، بل نجد لديها سذاجة واضطراباً في التصور، فهي تلجأ إلى الحرم، وتتضرع بحرارة كي يرزقها الله غلاماً، فلما رزقها به أصبح عماد حياتها، فإذا اضطربت صحته (**لا يعود الله رحيماً كما ظننته من قبل.... ترفع أحداقها إلى السماء وهي تعاتب الله بحرقة: ليه يا ربي؟ هو واحد وما لي غيره. ثم تبكي**[2]).

الشخصيات النسائية الثانوية:

عرضت الكاتبة في روايتها عدداً من الشخصيات النسائية الثانوية في مشاهد قصيرة غالباً، بعضها لا يتعدى عبارات قليلة، ووظفتهن في حمل

(١) السابق ص ١١٤.

(٢) السابق ص ٩١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

جوانب من قضيتها التي عنونت بها روايتها (جاهلية)، فكل منهن تجسد لوناً من الخلل الفردي والجماعي، وتتوزع هذه الشخصيات في مجموعتين: مجموعة الطائشات والمتعهرات، ومجموعة المأزومات والضحايا.

تتمثل المجموعة الأولى بشخصيتين واضحتي الصورة، وعدد آخر غير محدود، تذكرهن الكاتبة بالصفة الرئيسية التي تعرضها في بعض المواقف. أما الشخصيتان فهما سحر وابنة الخمسة عشر ربيعاً.

وسحر مراهقة طائشة تبحث عن المرح والمغامرة. تستجيب لمكالمة هاشم وتواعده بعد اتصالين وترافقه في جولات بسيارته في شوارع المدينة بجرأة عالية، ثم تستقبله في بيتها في غيبة أهلها، وتستسلم له بسهولة حتى دون أن يعدها بالزواج، ويتنكر لها هاشم فلا تجد إلا الدموع والتوعد بعقاب الله له[١].

والفتاة الأخرى بغي يلتقطها هاشم من الشارع، ويأخذها إلى بيته في غيبة أهله، ويذهل عندما يرى وجهها الطفولي، ولكنه يقضي أربه منها[٢].

وفي إحدى تداعيات خواطر هاشم تشير الكاتبة إلى كثيرات مررن في حياة هاشم من البوابة نفسها، ولم يتركن أثراً في ذاكرته. (ص٢٧).

كما تشير إلى مجموعة من النساء المتزوجات الباحثات عن المتعة مع غير أزواجهن، وهؤلاء اللواتي يفضلهن هاشم؛ لأنهن باحثات عن المتعة من جهة، وليس لهن أجر ولا تكلفة من جهة أخرى[٣].

كما تشير إلى بغايا في عدد من شوارع المدينة الرئيسية يسهل التقاطهن ومساومتهن على الأجر[٤].

---

(١) السابق ص ٢٥و٢٧.

(٢) السابق ص ٣٨.

(٣) السابق ص ٢٧.

(٤) السابق ص ٣٧.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفئة الثانية هي فئة المأزومات والضحايا، وتجسدها كل من الفتاة مزنة التي هربت من أهلها في بادية الشلالحة في اليوم الثالث من زواجها، فقد زوجوها وهي صغيرة لم تبلغ الخامسة عشرة من رجل كبير (يوجعها) إلى درجة لم تعد تحتملها، فآثرت الهرب، فقبض عليها في المدينة، وعندما فحصها الطبيب ظن أنها تعرضت لاغتصاب فحولها إلى دار الرعاية[١].

الفتاة الثانية المأزومة (شرف) التي تعاني من قهر أخيها في البيت أحبت شاباً أجنبياً لا يملك (صك الغفران) وهربت لتتزوجه، ولكن الشيوخ في المحكمة رفضوا تزويجها؛ لأن الطرف الآخر (أجنبي) فوضعت في دار الرعاية، فانتحرت بإشعال النار في جسمها قبل أن تعاد إلى أهلها.

وهناك شخصيتان نسائيتان من شريحة مالك الاجتماعية، أي من فئة (التكارنة) لم تغب الأزمة عنهما.

الأولى أم مالك التي كافحت بعناء لتربية ابنيها مالك ويوسف، ولكن يوسف انهار أمام العنصرية التي يواجهها، فلا دراسة ولا عمل ولا أمل في مستقبل معقول، وحاول الانتحار، لكن مالكاً أدركه فأصيبت الأم بإحباط شديد، ورفضت حتى أن تزوره في المستشفى، واعتبرته قد مات من زمن، واشتد بها الألم والنحول وماتت بمرارتها[٢].

والشخصية الثانية مريم ابنة جيران مالك، التي أحبته عن بعد، ولم تجد وسيلة للوصول إليه، فبعثت إليه رسالة صغيرة تخبره بعاطفتها ولكن مالكاً لم يستجب؛ لما كان يلاقيه من إحباط ومعاناة[٣].

ما الذي تجسده الشخصيات النسائية في رواية (جاهلية)؟ وما القضية

---

(١) السابق ص ٨١.

(٢) السابق ص ١٦٤-١٦٥-١٦٦.

(٣) السابق ص ١٦٩-١٧٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

التي يحملنها؟ ومن ثم ما الرسالة التي تبعثها الكاتبة عبرهن إلى الآخرين؟. قلنا إن الكاتبة جعلت (لين) الشخصية المحورية في الرواية، ووظفت معظم الشخصيات الأخرى لإضاءة جوانب من سماتها، ولمنحها الفرصة للتفاعل وعرض القضايا. وقد فعلت الشيء نفسه في تجسيد القضايا التي عالجتها في الرواية، فحملتها القدر الأوفى من القضايا والرسائل، ووزعت البقية على الشخصيات الأخرى لتحمل كل منها ـ نسائية ورجالية ـ جانباً من تلك القضايا، وشيئاً من تلك الرسائل.

والقضية الكبرى التي تحملها الشخصيات النسائية: الخلل بمستوياته الثلاثة: الفرد والأسرة والمجتمع.

يبدو الخلل الاجتماعي من خلال رؤية لين في عدد من المظاهر، ومن ثم فهو ليس خللاً واحداً أو في جانب من جوانب حياة المجتمع، بل هو متعدد ومنتشر في عدد من الجوانب، فلا نرى في الرواية إلا مظاهره الحادة، دون أن يكون لها مقابل مضاد، أو واحة يستريح فيها القارئ من متواليات الخطأ والسخط والإدانة. وسنعرض لأنواع الخلل الاجتماعي التي تكشفها الرواية حسب أثرها على شخصياتها النسائية، موضوع دراستنا الخلل الأكبر هو العنصرية، وهو القضية التي خاضت فيها لين وتحملت آثارها المدمرة، وتتلخص في المقاييس التي اعتمدها المجتمع للتفرقة بين الناس حسب ألوانهم، فوضعت اللون الأسود في المرتبة الدنيا، ولم تسمح له بالتداخل مع اللون الأبيض بأي حال من الأحوال. وقد وجدت لين نفسها في غمار هذه المشكلة عندما فتحت قلبها لحب مالك الشاب التكروني الأسود اللون، والذي أحست بعاطفته خلال اتصالاته وحواراته معها، وكانت مهيئة لمبادلته العاطفة، فلما باح لها بحبه أدركت أبعاد المشكلة التي ستواجهها بسبب خلل عنصرية اللون الذي يستغرق مجتمعها

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

(ستكشف علاقتها بمالك وعورة الحياة تحت سماء بلادها، وستمزق النسيج الحريري الزاهي الذي تلتفع به تلك الحياة الآسنة، ولن يغفر لها أحد، وقد أدركت منذ غادرت مالكاً أن عليها إن مضت في طريق الحب الوعر أن تدفع الثمن... [(١)]).

وقد حسمت لين أمرها واختارت أن تسير في الطريق الوعر، فأطلقت لعاطفتها العنان، وكأنما غابت لفرط قناعتها بقدرتها على تجاوز خلل عنصرية اللون عن واقع مجتمعها الذي ستصحو على ضرباته الموجعة بعد حين، ففي واحدة من لقاءاتها بمالك تبدو غير مبالية بهذا الأمر على الإطلاق، فيما يبدو مالك خلافها متخوفاً من آثاره، رغم إعجابه الشديد بنقاء لين من ذلك الخلل، **(... لو كان له لون آخر فسيحبها، وعندما تأمل يقينه، وهي تجلس أمامه بهدوء كأن لم تمسسها الحياة بألم بعد ابتسم؛ لأنه أدرك كم هو هش ذلك اليقين وقابل للنقض، لكنه سرى في أعماقه كما لو كان قد خلق هو أيضاً كي يعتنقه.**

-لم تبتسم

سألته فقال: فكرت في أنه لو كان لي لون آخر فسأحبك كذلك.

قطبت جبينها قليلاً ثم تساءلت:

-لم لا ترى عندما تنظر إلينا إلا اللون.

-أرى ما لا ترين يا لين.... لا أدري على وجه التحديد ما الذي جعلك مختلفة هكذا، لكنك سبحت بعيداً عن القذارة، وعندما قابلتك واقتربت منك شممت رائحة قلبك[(٢)]).

وعندما يخطبها مالك من أبيها، ويدرك أبوها حجم الخلل الاجتماعي

---

(١) السابق ص ٦٦.

(٢) السابق ص ١٣٧-١٣٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الذي يحول دون زواجهما، تحاور لين أباها لإقناعه بالموافقة مبينة قدرتها على تحمل أذى المجتمع: (**قال لها: - يا ابنتي لا أقدر، سيؤذونك ولن أحتمل.**

-لكني سأحتمل يا أبي، وهم سيؤذونني قليلاً، ثم تشغلهم حياتهم[١]).

وعندما تقع الواقعة على مالك، ويبطش به هاشم، فيسقط في غيبوبة لا يفيق منها، تدرك أن عنصرية اللون استحكمت في المجتمع لدرجة تجاوزت المقاييس السماوية، وأصبحت أكثر تأثيراً فيه منها (**الأشياء التي تحول بينهما يرى الناس أنها أقدس مما قاله الله في سمائه**[٢])؛ لذلك لن تقتصر الأذية عليها، بل ستطال أباها أيضاً[٣].

هذا الضغط الهائل للخلل الاجتماعي جعل لين تقف مع نفسها في محاكمة قصيرة (**هل أخطأت عندما أحبت رجلاً أسوداً؟ هل ارتكبت ذنباً في حق الله أو الناس؟ لقد أحبت إنساناً، أحبت قلباً من ذهب، ولم تنظر إلى اللون**[٤]) وما دام الذي أحبته إنساناً وقلباً من ذهب فإن الإدانة ستتجه في نفس القارئ إلى الطرف الآخر ولا شك.

المظهر الثاني للخلل الاجتماعي الذي تجسده لين هو خلل (صك الغفران)، وقد استخدمت الكاتبة هذا المصطلح للدلالة على الجنسية الوطنية التي يحرم من لا يحملها من حق الزواج بمن يحملها، فمالك الذي بادلته لين الحب لم يكن يحمل هذا الصك، وقد أخفى عنها هذه الحقيقة أملاً في أن يحصل عليها، إذ كان يسعى على مدى سنتين لنيلها، فلما يئس أبلغها بمأزقه، فكانت صدمتها الكبرى (**أنا لا أحمل صك الغفران. قال بنبرة حاول أن تكون ساخرة، وهبت برودة، ظل الهاتف معلقاً بلا حراك**

(١) السابق ص ١٢٣.

(٢) السابق ص ٩٦.

(٣) السابق نفسه.

(٤) السابق ص ٥١.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بين كتفها وأذنها، وهي ترى الغيوم في لوحة على الجدار أمامها تتباعد أطرافها لتغدو حردة تقف في صف طويل بينها وبينه[١]).

ورغم أن الكاتبة وظفت شخصية أخرى لإظهار هذا الخلل بقوة أكثر وإدانته، ـ سنقف عندها بعد قليل ـ فإن الخواطر التي أدارتها في نفس (لين) على أثر سماعها بصك الغفران تحمل صورة قاتمة لمن يؤمنون بهذه المفارقة، مفارقة التمييز بين الناس، وتتصورهم وقد أحاطوا بها في شماتة كبيرة (**لم يقل شيئاً ولم تقل شيئاً، وحفهما صمت ثقيل خانق مفزع، وعندما استطاعت أن تتبين شيئاً مما حولها رأتهم ينسلون إلى غرفتها من كل مكان: من تحت الباب، عبر النافذة، من فتحة المكيف، من خلال مقابس الكهرباء، رأت كل أولئك الذين سيكشفون بعد قليل أنها ثقبت سياجهم الشفاف المقدس، الذي نصبوه منذ دهور طويلة مضت بين الألوان والأجناس والأعراق كي لا تختلط فيحل الفساد في البر والبحر، ملؤوا فضاء الغرفة، وابتسموا ساخرين يرددون الواحد تلو الآخر:**

-قلنا لك تكروني ما فهمتِ، أهو طلعلك بمصيبة تانية وإنت آخر من يدري[٢]).

وتعرض الكاتبة شخصية نسائية أخرى تجسد هذا الخلل هي شخصية (شرف) التي أرادت أن تتزوج شاباً من غير جنسيتها؛ كي تتخلص من العذاب الذي تلقاه في بيت أهلها، وذهبت معه إلى المحكمة كي تعقد لها قرانها عليه، لكنها صدمت برفض المحكمة؛ لأن الشاب غير سعودي، تحكي قصتها للين قبل أن تقع لين ضحية المأزق نفسه (**تطلّع إليّ الشيوخ بريبة، ونهرني أحدهم وهو يقول: روحي جيبي ولي أمرك يا بنت، قلت له:**

(١) السابق ص ١٠٣.

(٢) السابق ص ١٠٤.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يا شيخ أنت ولي أمري، فرد متذمراً: هذا لو كان اللي بتتزوجينه سعودي، قلت بحنق، لكنه عربي مسلم، فقال بغلظة: لا تكثرين الكلام يا بنت، جيبي ولي أمرك، وورقة من وزارة الداخلية، وبعدين يحلّها الحلال[١].

وتدفع الكاتبة هذه القضية إلى ذروة مأسوية؛ لتعمق أثر الخلل في نفوسنا، فتجعل الفتاة (شرف) وقد سدت أمامها الأبواب تؤثر الموت، فتنتحر حرقاً في دار الرعاية، وتعجز لين التي أذهلها منظر النار تشتعل فيها عن أن تفعل شيئاً، وتعجز جهود الآخرين الذين أطفؤوا النار عن إنقاذها من الموت[٢].

وأحسب أن هذا المشهد إدانة واضحة لظاهرة الخلل التي ذهبت شرف ضحيتها.

المظهر الثالث للخلل الاجتماعي هي الذكورية المستبدة التي تمنح الرجل كل الفرص التي يريدها، وتُحرم المرأة منها، فالرجل (**يصنع حياته أما المرأة فتنتظرها، وبإمكان الرجل مهما تأخر به العمر أن يبدأ من جديد، سيجد امرأة، وسينجب أطفالاً.... أما المرأة.... يالعذاب المرأة**[٣]).

وقد تأثرت أم لين بهذا الخلل الاجتماعي السائد، وكانت لين ضحية هذا التأثر عندما أهملتها أمها وانصرفت بكليتها لأخيها هاشم، وتركت في نفس ابنتها مرارة شديدة، تشعرها أن الأنوثة في حد ذاتها ذنب (**اعتقدت دائماً أن الأبناء هبة الله، وأن الأبناء لا يختارون أن يكونوا إناثاً أو ذكوراً، وربما لأنها وعت في وقت مبكر أنها أفضل منه، لكن أنوثتها ذنب لا يغتفر**[٤]).

---

(١) السابق ص ٨٦-٨٧.

(٢) السابق ص ٨٧.

(٣) السابق ص ١١٤.

(٤) السابق ص ٩٢.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ومن مظاهر الذكورية التي تنتقدها لين الفصل بين النساء والرجال بحواجز في الحرم، وتُعدّ هذه الظاهرة من تشوهات الحياة المستجدة في السنوات الأخيرة؛ لذا تتذكر ما قبل هذه الظاهرة في عرض واضح للمفارقة السلبية في رأيها (**لم تكن الحياة قد تشوهت بعد، وكان الحرم دون حواجز أو سواتر أو رجال بلحى طويلة وأصوات خشنة يصرخون في الداخلين:**

هيه، هيه، ياحاج، هذا مكان حرمة، مكان رجال هناك.

وهم يدفعون عجوزاً يستند إلى عكازه، قد لا يعرف من العربية سوى الفاتحة يرددها في صلاته، كان زماناً جميلاً[1]).

وقد امتد خلل الذكورية إلى حياة الأسرة بسبب إيمان الأم به، وسبّب شرخاً في نفس لين، التي ترى أمها ملتصقة دائماً بأخيها، تستميت في رعايته وتهمل ابنتها لدرجة أشعرتها بأنها متطفلة على حياتها (**كانت أمها دائماً وراءه كي تحميه، كي تدفعه، كي تسيّره في طرقات الحياة المتشابكة، ولم تكن تشعر بشيء في لحظات مثل تلك سوى أنها كيان طارئ وأحياناً متطفل على وجودها**[2]).

وتعرض الكاتبة من خلال شخصية الأم معاناتها قبل أن ترزق بابنها الذكر وسط المجتمع النسائي، ومدى انكشاف غمتها وتغير حالها بعد أن رزقته؛ لتظهر أثر هذه الذكورية على النساء، اللواتي استسلمن لها، بل وأخذن بمقاييسها (**ظل هاشم حلمها الأول والأخير، جنينها الذي مرت على أبواب كثيرة قبل أن يجيء، ظل فزعها وأمنها، مفتاحها الذي فتح لها باب الفردوس النسوي، كانت سلمى فصارت أم هاشم، انقطعت ألسنة لمزت**

(١) السابق ص ٨٩-٩٠.

(٢) السابق ص ٨٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

غيبتها ونعتتها بـ ((مسكينة)) صار لديها من تحلف بحياته وقربه وبعده وغيابه وحضوره، ولم تحلف مرة بموته، اكتسب وجودها شرعيته أخيراً[١]).

وفي موقف فاقع لأثر الذكورية في شخصية أم لين تحبك الكاتبة مشهداً للأم إثر ولادتها لابنها وتقدمه لابنتها لين على النحو التالي: (**وعندما عادت من المستشفي تحمله على ساعدها، شع وجهها بفرح غامر، أدنته منها وهي تقول: ـ قبلي رأس سندك**[٢]) (صـ٩٠)

ويتصل بخلل تسلط الذكورية في المجتمع وجه يقابله وينجم عنه غالباً هو ظلم الأنوثة، وقهر المرأة، فإضافة إلى التميز الذي مارسته أم لين عليها تظهر شخصية (شرف) التي عاشت ظروف تسلط أخيها الأصغر منها عليها وبمباركة أمها، فقد جسدت في جانب من مأساتها الظلم الذي تعانيه الفتاة داخل أسرتها لشيوع مفهوم سيادة الذكورية، وإخضاع الأنثى قهراً لسلطته، فشرف هربت من بيت أهلها لأنها لم تجد فيه من يفهمها أو ينصفها من ظلم أخيها. تقص على لين هذا الجانب من مأساتها (**لم تعرفي عن الألم ما عرفته، لم يضربك أخ أصغر منك لأنك امتنعت عن تجهيز الشاي له ولرفاقه، لم تجربي أن تسأليه بغضب مخنوق، بأي حق تضربني، فتنهرك أمك: اششش، لا ترفعي صوتك على أخيك، لم يسبق أن أنزلك هذا الأخ من السيارة وأنت تستعدين لمرافقة أمك إلى زيارة عائلية دون أن يشرح لك لماذا هو مصرّ على أن تنزلي وألا ترافقي أمك، مكتفياً بأن يقول ببرود: روحة ما أنت رايحة، انزلي ياللا، وعندما ينتصف الليل يفتح عليك باب الغرفة بغتة ثم يقول: عشان تبطلي قلة أدب مرة ثانية، ولما أقلك سوي**

(١) السابق ص ٩٢.

(٢) السابق ص ٩٠.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الحاجة تسويها وأنت ساكتة، ثم يصفق الباب بعنف، لا لم تعرفي الألم ولم تعرفي المهانة، كنت شيئاً في ذلك البيت ولم أكن روحاً، فكيف فكيف لي ألا أغادر[1]).

الخلل الاجتماعي الأخير الذي أشير إليه هو الانهيار الأخلاقي الذي جسدته شخصيات سحر وابنة الخمسة عشر ربيعاً، وبقية البغايا اللواتي كان هاشم يلتقطهن من الشوارع، والنساء المتزوجات الباحثات عن المتعة مع غير أزواجهن.

أما سحر فقد جسدت بطيشها خلل التربية الأسرية، وغياب التوجيه الديني والخلقي، والتفلت وطيش المراهقة، وقد دفعت ثمنه غالباً، وغابت عن الرواية في ذهولها ونحولها ومستقبلها المجهول.

وأما ابنة الخمسة عشر ربيعاً فقد أبرزت ذروة عالية من الانهيار الخلقي أذهلت هشاماً وجعلته يتساءل بدهشة (**إذا كانت في الخامسة عشرة فمنذ متى بدأت دعارتها**[2]).

ولا شك أن القارئ يحسّ بصدمة قوية لحجم هذا الخلل، والذي يتضاعف تصوره إذا قرناه بقدسية المدينة وما نتوقعه من القيم فيها، وأحسب أن الكاتبة أسرفت في تضخيمه ونشره في شوارع المدينة الرئيسية، وكأنها واحدة من أعتى المدن التي تظهر البغايا في شوارعها جهاراً نهاراً، حتى إن (هاشم) أبعد فكرة الزواج عن نفسه لسهولة الحصول عليهن (**وَلِمَ يتزوج إن كانت هناك نساء مستعدات لأن يمنحن أجسادهن بأثمان معقولة، نساء يمكن أن يلتقطهن المرء من شارع سلطانة أو قباء أو الملك فيصل، تركب الواحدة منهن، وإن لم يعجبها السعر ـ**

(١) السابق ص ٨٦.

(٢) السابق ص ٣٨.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وغالباً ما يعجبها ـ نزلت أو ساومت قليلاً[١]).

وعندما نتأمل عبارات الكاتبة وهي تعرض خواطر هاشم عن النساء اللواتي مررن به وهو ما يزال في العشرين من عمره نحسب أن الحالة أصبحت كارثية، ونشعر بالرعب لما وصلت إليه في هذه المدينة المقدسة، ولما توحي به من ترد وسقوط (**كل أولئك اللواتي عبرن حياته: طويلات وقصيرات، نحيلات وبدينات، خجولات وجريئات، باحثات عن الحب وباحثات عن التسلية، كلهن جئن ومضين بلا ألم أو ندم، ونسي كثيراً منهن**[٢]).

والمدهش أن الشخصية النسائية المحورية التي تكتشف ولوغ أخيها هشام في هذا الخلل تقف موقفاً ضعيفاً لا يزيد عن أن تقول له فيه: اتق الله في بنات الناس يا هاشم[٣]. وعندما تفاجئه في البيت وهو يُخرج البغي ابنة الخمسة عشر ربيعاً يتكرر موقفها الضعيف (**ندت عنها شهقة قصيرة عندما رأتهما، وكسا وجهها تعبير مخلوط من الحيرة والصدمة، وخُيّل إليها أنها لفرط انفعالها لا تعرف ماذا تفعل أو تقول، أغضت سريعاً ومضت إلى غرفتها، وفي وقت متأخر من تلك الليلة فتحت عليه باب غرفته، ثم قالت بنبرة مستاءة:**

اتق الله في بنات الناس يا هاشم، وبلاويك خليها برّا البيت، مو عشاني، عشان أمك وأبوك[٤]).

وفي ظني أن الكاتبة لم تحسن استثمار شخصية لين في هذا الموقف، ولم تطلق قدراتها لتجعل أخاها وهو في موقف الضعف والتلبس بالجريمة

---

(١) السابق ص ٣٧-٣٨.

(٢) السابق ص ٢٧.

(٣) السابق ص ٣٧.

(٤) السابق ص ٣٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يحُسّ بالهاوية التي تردّى فيها، ولم تتح الفرصة لها لإظهار شيء من القيم الرادعة أو على الأقل المصححة لطريقه المعوج، وطلبها لا يخرج عن تغيير المكان الذي يمارس فيه سقوطه؛ مراعاة لمشاعر والديه وحسب، وهذا المستوى المتدني من التصرف لا يناسب شخصية لين الأخصائية الاجتماعية والمثقفة الجريئة المتميزة.

ويندرج في خلل الانهيار الخلقي مشهد تقدمه الكاتبة لشخصيتها الرئيسية لين عندما كانت طالبة في الجامعة وزارت المشرحة مع زميلتها. يجسد هذا المشهد جريمة من جرائم الشذوذ الجنسي راح ضحيته طفل صغير (**كان الطفل في السادسة من عمره، جُلب إلى المستشفى ميتاً بعد أن اغتصب بعنف من قبل أحدهم، مكث في الثلاجة أشهراً دون أن يتعرف عليه أحد**).

الرسالة: صورة قاتمة وإرهاصات بالحلول:

تتجمع مظاهر الخلل في رواية جاهلية لترسم صورة قاتمة للحياة التي عاشتها شخصيات الرواية، وجسدتها في معظم حالاتها الشخصيات النسائية، سواء كانت محركة أحداثها أو الضحية التي تتحمل نتائجها، وهو خلل يصيب الدوائر الثلاثة: الفرد والأسرة والمجتمع.

وبموازاة هذه الأنواع الثلاثة تحمل الخلل العالمي، الذي آثرت أن تجعله في خط مستقيم وتلبسه شيئاً من الرمزية الفنية، وخصت به مقدمات فصولها، ولم تغمس شخصيات روايتها بها وخاصة النسائية، وإن كانت بعض التلميحات تتراسل مع ذلك الخط، وهذا الأمر جدير بدراسة مستقلة، لا نجد حاجة لنعرض له هنا؛ لأنه خارج موضوعنا.

أعلنت الكاتبة قضيتها في عنوان الرواية، وفتحت آفاقها لكل المستويات والأنماط باستخدامها صيغة التنكير (جاهلية)، واستخدمت

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أسماء التقويم التي كانت موجودة عند العرب الجاهليين: السنة والشهر واليوم في مقدمة كل فصل؛ لتكون مدخلاً تعريفياً وجوّاً عاماً يصاحب القارئ وهو يعيش أحداثاً معاصرة، وأضافت في كل تأريخ الحدث العسكري الذي هزّ الأمة، وأحدث فيها غير قليل من التمزق والفرقة وقتل الذات، حرب عاصفة الصحراء؛ لتكون منطلق التاريخ بالمصطلحات الجاهلية، على عادة الجاهليين الذين يؤرخون بحدث جلل، كحرب كبيرة، أو زلزال أو فيضان أو قحط.... إلخ، فتمتد صفة الجاهلية في ذهن القارئ لتستغرق العنوان كله في ذهن القارئ، وتصبح تلك الحرب معلماً كبيراً من معالمها.

وكما ترسم الكاتبة صور الخلل فاقعة حيناً ومُضَخّمة حيناً آخر، فإنها ترسم صورة حادة لحلول ترهص بها خلال الرواية، وتدقّ أجراسها بعنف في آخر الرواية، فالخلل في تصورها أحدث عطباً واسعاً في بلادها تصوره لين في تداعيات خواطرها بأنه بدّل نفوس الكثيرين، وجعلهم يعيشون الحياة بوجهين، ويدورون حول أنفسهم فقط مثل ماء راكد في مستنقع: (**بلادها التي يقول الناس فيها ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يقولون، بلادها التي تتآكل الحياة فيها لطول ما تدور حول نفسها تحت مستنقع آسن، بلادها التي تترامى مثل سطح غير مصقول من الفضة، خشن بارد مصمت**[1]).

ونتيجة لهذه الصورة القاتمة ترهص الكاتبة بحلول مريعة لهذا الخلل الواسع يصقل سطح الفضة الخشن ويخرجه من برودته وصمته.

فهذا السطح الثمين يحتاج إلى جهنم صغرى كي تصهره وتطهره،

(١) السابق ص ١٠٩.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وتعيد تشكيله من جديد[١].

وعندما تصل آثار الخلل في نفس لين إلى مداها الأبعد، فتطول غيبوبة مالك أكثر من ثلاثة أشهر، (**من يوم مؤنس الخامس عشر من شهر وعل الذي يعادل الخامس عشر من شهر شوال إلى يوم شيار التاسع عشر من شهر مؤتمر، ويعادل شهر محرم**) ويبدو أنه لن يفيق من غيبوبته أبداً، تتفجر ثورة لين في معادل موضوعي يحمل لهيبها. هذا المعادل هو برنامج غوغل في شبكة الإنترنت الذي تستعرضه لين فيعرض كل عبارات النقمة والرفض والتمرد، بل وينهي الرواية بعبارة لا تختلف عن قرع طبول التمرد والثورة ودوي الانفجارات. عبارة تتكرر ست مرات متوالية، وتترك السطر مفتوحاً بنقاط متوالية للمزيد من التكرار، تقول العبارة: (**أطلق لها السيف لا خوف ولا وجل....**) وأحسبني في غنى عن الحديث عن دلالات العبارة ووجهتها، فهي واضحة الدلالة تستغرق كل صور الخلل التي وردت في العبارات التي يهذي بها غوغل في السطور التي سبقتها، الخلل الفردي، والعائلي والاجتماعي والعالمي، وتطلق فيه السيف بلا خوف ولا وجل، تطلق بركاناً تجمعت حممه في فصول الرواية، وبلغت في نهايتها حد الانفجار.

وبعد:

فبماذا نخرج من هذا كله؟. وما الذي يترسخ في نفوسنا من صور الشخصيات النسائية المدنية في الروايتين اللتين ولدتا من وجدان وتصور أبناء المدينة نفسها، ومن معايشتهم لشخصياتها، وإحساسهم بهمومها وتطلعاتها؟. هل ثمة تميز في هذه الشخصيات؟ وهل تسكنها أي من سمات المدينة وموروثاتها؟ وهل تجسد المرأة المدنية الحقيقية في زمن الرواية والذي يمتد إلى الحاضر القريب؟.

---

(١) السابق نفسه.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في يقيني أن الصورة التي رسمتها الرواية الأولى واقعية إلى حد بعيد، تمثل شريحة واسعة من المجتمع النسائي في المدينة المنورة بكل ما فيه من إيجابيات وسلبيات، وتألق وعثرات، في حين تجسد الرواية الثانية نموذجاً مختلاً، لا أزعم أن المجتمع النسائي المدني متطهر منه، لكني أزعم وبقوة أنه حالات شاذة عن سواء ذلك المجتمع، وهو من مشكلاته الفردية، ولا يشكل ظاهرة أو حالة مرضية متفشية، وخاصة الصورة المبالغ فيها التي رسمتها الكاتبة للبغايا اللواتي يسهل التقاطهن من شوارع المدينة الرئيسية، والباحثات عن المتعة لدى غير أزواجهن، والطالبات المستسلمات للذئاب حتى دون أن يعدوهن بشيء. والعجيب أن تخلو الرواية من نموذج نسائي إيجابي واحد، وأن لا نرى في الرواية إلا المنحرفات والمأزومات، وكأن الكاتبة تنقلنا إلى منتجع خاص بهن، لا إلى مدينة مقدسة نرى الآلاف من النساء والفتيات اللواتي يعشن في أسرهن حياة مطمئنة نظيفة، فضلاً عن اللواتي تغص بهن المساجد، وجمعيات تحفيظ القرآن، واللقاءات الإيمانية في صالونات كرائم العائلات.

قد يكون من بعض مهمات الرواية تصوير الانحرافات، وقد يلجأ الكاتب إلى تضخيمها عمداً على نحو ما يفعل رسام الكاريكاتير، لكن الخطأ الذي لا يسامح عليه الكاتب أن يقرّ في نفس المتلقي أن الاستثناء هو القاعدة، وأن الزاوية الصغيرة المظلمة والعفنة هي ساحة الواقع كله، وأن البيت بأركانه كلها ساقط أو آيل للسقوط، ولا منجاة إلا بجهنم صغرى تحرق كل شيء. فهذا سرف وظلم عظيم.

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة